نصف خائنة

وفاء شهاب الدين

نصف خائنة / رواية

وفاء شهاب الدين

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

حسام مصطفى إبراهيم

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠١١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٠٦- ٣

نصف خائنة

رواية

وفاء شهاب الدين

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهـــــــــداء

إلى عزيز

قررت اغتياله

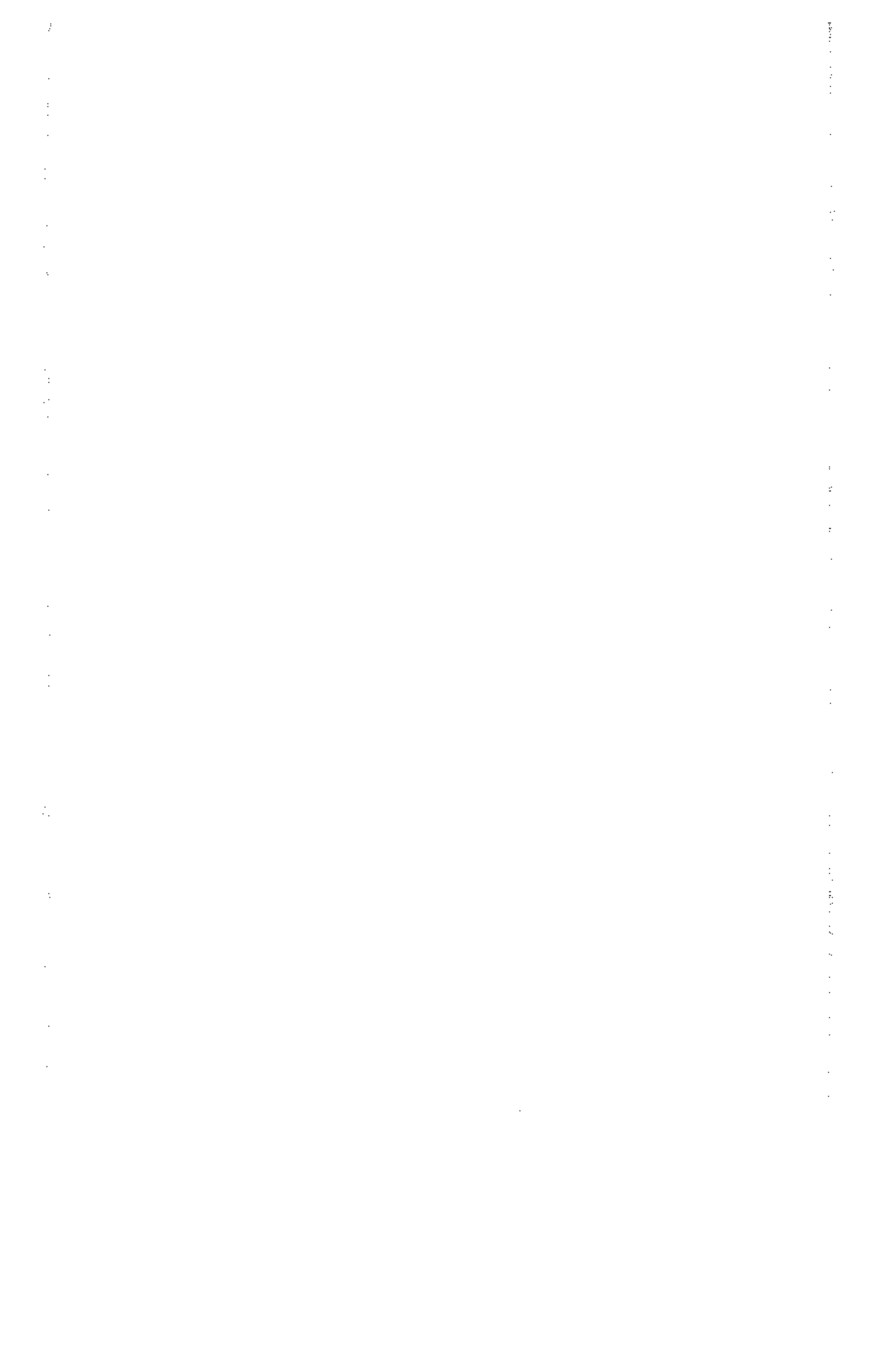
نصل قلمي هو ما نفّذ الجريمة ببراعة، لذا لم أستطع التمييز بين دمك وحبره

لم أجد لك أفضل من قبر الكلمات، ارتأيت أن الخلود في جحيم الحروف بين أشباح المعاني وصرخات الجمل هو ما تستحق، ها أنت مدفون بين صفحاتي؛ لكي تنال جزاء ما تستحق من كل زائر

أعلنها اليوم أنني ارتكبت جريمتي الأولى في عالم الحب بلا رغبة في التوبة

لذا...لا تسامحني.

وفــــــاء

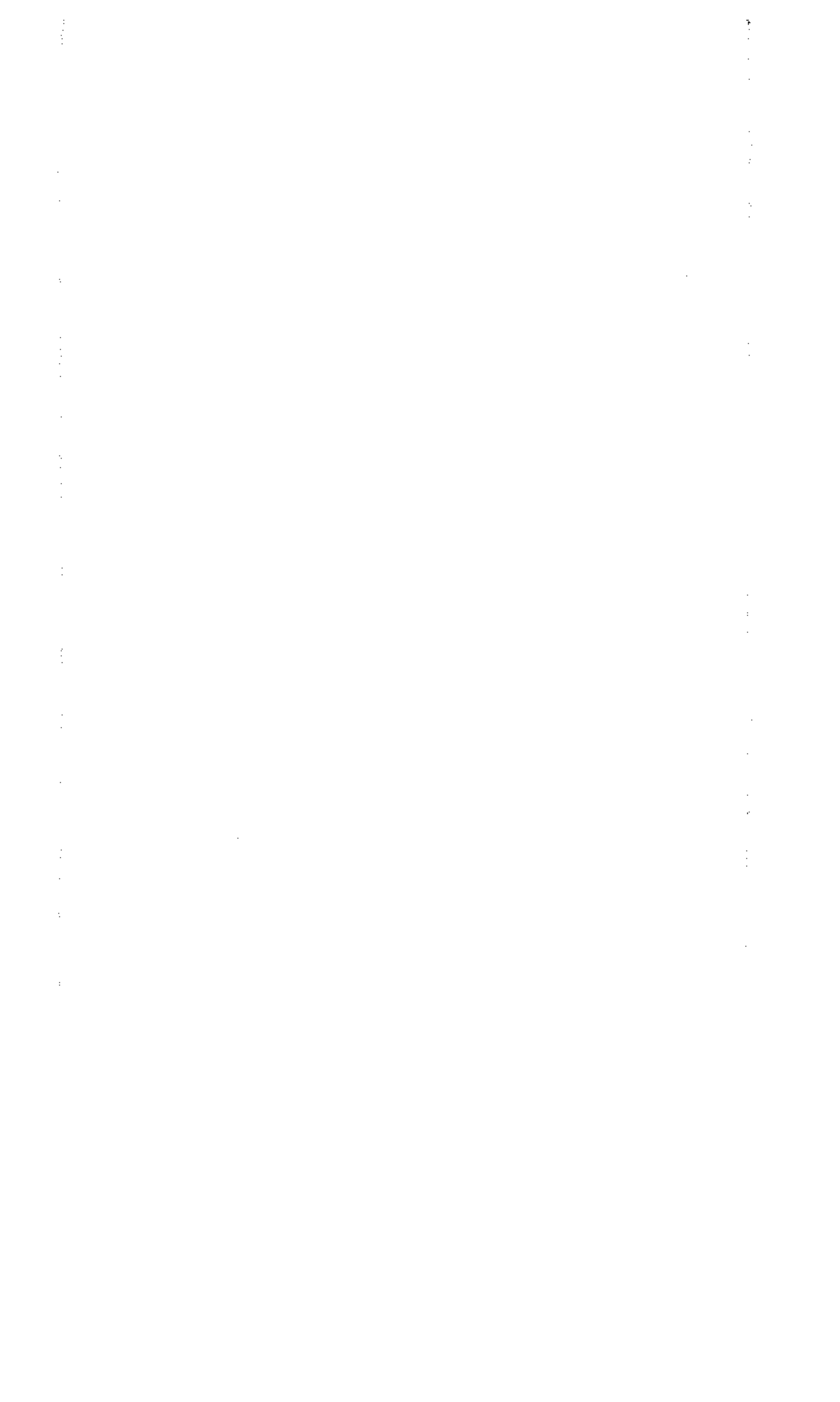


شكر خاص لـ:

الشاعر الإماراتي / أنور المشيري (قصيدة لبيه)

الشاعر السعودي / رشدي الغدير الدوسري (قصيدة شعوذة شعرية)

الشاعر السوري/ أيمن السلال (قصيدة حبيبتي وقوافل النساء)



"أنتِ خائنة"

خرجت من بين شفتيك مختلطة بزفرة جمّدت هواء الغرفة من حولي..

لن أكذب إذ أُخبرك للمرة الأولى أنني كنت أحتاج في تلك اللحظة هواءً دافئًا ينعش الدماء في شراييني.

كعادتك دائما، كلماتك تمنع عني الهواء وتتركني أصارع لأبحث عن نسمة أكسجين ضالة رحمها جموحها من الاحتراق بأنفاسك.

ترمي إليّ باتهاماتك وتتركني موثوقة إلى غيوم المحبّة التي فشلت في منحي الهواء وتركتني في منزلة بين فقدان الوعي وفقدان الحياة، ولك أن تختار لي ما يناسبك.

كنت أحتاج شيئًا ما يجدد حياتي التي تتسلل مثلك من بين أصابعي، شيئًا يمنعني عن التحليق في سماوات الحب الخادع ويحولني إلى امرأة كأي امرأة في ممالك النساء.

لا أبرر فعلتي، ولكنك مثلي جربت لذة أن تتحول من عاشق غض إلى خائن محترف، ألم تكن معلمي؟

علمتني أن لكل خيانة ظروفا وملابسات وقد توفّرت لي كل الأركان، كل ما حولي كان يدعوني إلى استبدالك،

وجهك العابس، صوتك الجاحد، رقم هاتفك الذي خاصـــم هاتفي، وجسدك الذي نسى تلك الليلة -عندما تخلى عن ذلك الضلع- ليهب لي الحياة.

كنت لجسدي القلب فتوقفت عن النبض نكاية فيّ، سلبتني ضياء عيني عندما سلمته لك، وقتلت خلايـــا عقلـــي عنـــدما سلمتك مقوَدَه.

كنت أحتاج لدواء يخفف ألم جوارحي، كأم أفاقت من ألم المخاض لتكتشف أنها لم تحمل ذلك الطفل أبداً، وأن كل ذلك الألم كان دعابة ثقيلة.

لم أخطط.. لم أنوِ.. فقط..استسلمت.

لم يكن لدي الخيار، وكم هو ممتع أن تُجْبَرَ علـــى شـــيء تتمناه، تشعر بمن يعرف كل تفاصيلك دون أن تتعرى أمامـــه، تشعر بحنانه وعطفه دون أن ينطق، تشعر بحبه القديم الجارف، حب كان وحيد الاتجاه يوما ما، وأصبح لحظتها يشع من قلبي، يضيء العالم.

ربما أنها كانت نزوة، لكنها الآن ليـــست كـــذلك، لقـــد تذوقت للمرة الأولى -منذ أدركت لـــذة التجريـــب- لـــذة السباحة في ماء دافئ بعد أن يبس الماء المجمد أطرافي.

لست مذنبة، فلم أسع إليه.. كنت مضطرة لإجابة دعـوة كنت أعلم أنها ستمنحني متعة يئست من الـشعور بها بـين ذراعيك، تمنيت أن تتخلى عن أنانيتك كرجل استبدلته بـه زوجته الأفضل، وتتذكر حبًا جمعنا يومًا ما، حبًا يجعلك تنشد لي السعادة معك أو مع حبيب آخر.. حبًا تخلص من جنسه المقيت الذي لوّن بحبر التعاسة جدران مملكة النساء.

تؤرقني تلك النظرة التي رميتني بها، كانت كحربة أصـابت الأنثى بداخلي ولكني اقتلعتها من بين ضلوعي ورميـت بهـا مبتسمة..فلم تعد نظرات الاحتقار تـذبحني بعـد أن مـنحني الحبيب درع مشاعره.

كنت بحاجة لمن يدثرني بدثار الأمان الذي لم أعرفه يومًا، لم أكن من أسرة أرستقراطية مثلك، كنت طفلة صغيرة بين سبعة إخوة نعيش جميعًا في بيت ريفي بسيط، كنت الخامـسة بـين إخوتي، اختطفت غربان الموت والدي ونحن صـغارًا، فتـرك شقيقي الأكبر دراسته وبدأ في زراعة قطعة الأرض الصغيرة التي تركها لنا والدي...كان يجمعنا حوله في المساء لنتناول العشاء البسيط كوالدي، ليبرّ بقسمه، فقد أقسم ليلة أن توفى والدنا أن يكفلنا، وألا يدعنا نحتاج لرعاية شخص غريب إلى أن نتـزوج جميعًا حتى لو كان ذلك على حساب مستقبله وحياته.

كان الحِمل ثقيلًا، ففضلت شقيقاتي الحصول على شهادات متوسطة حتى لا يثقلن كاهل أخي بينما صممت أنا على مواصلة تعليمي الثانوي العام وحصلت على مجموع كبير أهلني لدخول كلية الطب، ثار شقيقي ولطمت والدتي خديها، فكيف لفتاة فقيرة مثلي أن تدرس في كلية الطب؟ وكيف سيدبر شقيقي مصاريف الدراسة وهو الذي يستعد للزواج؟

وطرقت كل الوسائل حتى أفوز بدراسة الطب إلى أن لانت لي والدتي، ووعدهم بأنني سأكتفي بأقل القليل، سأسكن في مدينة جامعية، لن أشتري سوى الملابس الضرورية والكتب التي لا يمكن الاستغناء عنها.

عانيت الكثير حتى أفي بوعدي واجتهدت في دراستي حتى لا أدع لهم الفرصة كي يجهضوا حلمي باقتلاع جذور الفقر التي تفرّعت وتشعبت كشجرة خبيثة بكل خلايا جسدي.

كان من الصعب أن أكمل دراستي، كنت أرتدي الثوب نفسه لعدة أيام متتالية، وأقوم بتصوير الكتب والمذكرات حتى لا أضطر للتوسل إليهم لشرائها، وأذاكر ليل نهار حتى لا أحتاج لدروس خصوصية، تخليت عن كل شيء حتى أستطيع مواصلة دراستي، كنت أرى زميلاتي ممن هن أقل مني ذكاء وجمالًا يرتعن في النعيم وأنا محرومة بجانبهن من كل متعة، إلا أنني تعودت أن أذبح رغباتي إذا كانت تتعارض مع ظروفي.

في عامي الدراسي الثالث تقدّم لخطبتي "إبراهيم" وهو أحد أقاربي، كان يعمل مدرسًا بالكويت، لم أكن أحبه و لم تكن لدي النية للوقوع في براثن غرامه، لكنني قبلت الارتباط به فقط طمعًا في مساعدته المادية لي كي أكمل دراستي بعيدًا عن زفرات أخي ولمزات زوجته ومعاناة والدتي ومحاولاتها الدءوب صد هجمات شقيقي الأكبر، الذي كان يتحين الفرص لكي يمنعني عن الدراسة، فقد كان يجاهر دائما بكراهته لأن تصبح شقيقته الصغرى طبيبة، هو الذي لم يستطع حتى أن يأخذ شهادة الثانوية العامة.

قبل زواجه كان يتمنى أن نصبح جميعا كواكب في سماء العالم، أما عندما تزوج تلك النمرة أصبح شخصًا آخر، كلماته صياح يصم الآذان، جارحة أحيانا، وشامتة أحايين أخرى، لذا كنت أتمنى أن أتخلص من تسلّطه و لم أجد سوى الموافقة على الخطبة كبداية للتخلص منها.

وعدني إبراهيم بالمساعدة وقد فعل، ففي غرة كل شهر كان يرسل لي مبلغا من المال أستعين به على قضاء حوائجي التي أصبحت فجأة كثيرة، ولأول مرة منذ سنوات أشتري ثوبا خاصا بي، فطوال حياتي كنت أرتدي ما لفظته شقيقاتي..لن أنسى ذلك اليوم عندما وقفت عارية تماما أتهيأ لمفاجأة ارتدائي ذلك الثوب، وقفت فترة طويلة أتأمل ثنايا جسدي حتى

أستطيع تبيان الفارق عندما أغطيه. كنت متوسطة الطول حنطية اللون، ينسدل الشعر الأسود على صدري فيحول استدارة وجهي إلى ملامح قمرية ساحرة، نحيفة ليس لأن طبيعة جسدي هكذا، ولكن للجوع الذي تعودت عليه طوال حياتي، لم تكن وجبات المدينة الجامعية تسد رمقي، و لم يكن معي ما يكفي لكي أقلد زميلاتي في الحصول على طعام آخر.

ارتديت الثوب وكم تفاجأت بفتنته، فقد حولني إلى فتاة أخرى، وإمعانا في متعة المفاجأة وضعت على وجهي طبقة من كريم الأساس ثم كسوهما بطبقة من البودرة وأمسكت بقلم الكحل لأزيد من جاذبية عيني السوداوين، ولأول مرة صبغت شفتي بلون قرمزي جعل "شهيرة" شقيقتك تخبرني -علانية بعد أن أسدلت شعري على كتفي- أنني أبدو كإحدى نجمات الإغراء.

شعور أظن أنك كنت تفتقده لأن كثرة شرائك للملابس أفقدتك الإحساس بمتعتها عاديًا، كذهابك إلى النادي كل صباح، ولعبك التنس مع جميلات الطبقة المخملية التي لا تنتمي إليها فتاة مثلي، وتناولك الغداء في أفخم مطاعم العاصمة، إنها أشياء فقدت متعتها بالنسبة إليك، فجعلت تبحث عما يثير غريزة الاستمتاع وتنبه خلايا المتعة التي قتلتها كثرة تلبيتك لشهوة الامتلاك.

أحسست لأول مرة أنني أعيش فعلا كأي فتاة، وقررت أن أبتاع ثوبا آخر حتى أحتضن تلك النشوة مرة ثانية، كان الفقر هو الزوج الوحيد الذي ضاجعته طوال حياتي لذا قـــررت أن أبحث عن عشيق آخر يمنحني متعة الشعور بالمخاطرة.

على الرغم من توفر النقود لدي، إلا أنني كنت أتطلع لشيء آخر ترنو إليه كل فتاة مرت بظروف مثل ظروفي وكــان لهــا تلك النفس التي تشرئب دائما لتعانق الأقمار، كنت أعـــيش في المدينة الجامعية التي تسكنها فتيات ينتمين لفئات مختلفة، وقـــد رأيت بأم عيني كيف كانت تعامل بنات الأسر الغنيــة الـــتي اضطرقمن الظروف للعيش بالمدينة، نتيجة عيشهن في محافظات أخرى بعيدة عن الإسكندرية.

كنت أرى فرقا شاسعا بين معاملة مديرة المدينة لـــشهيرة شقيقتك ومعاملة نفس المديرة لزميلاقما الكسيرات، كان نفوذ شهيرة يسبغ عليّ ثوب الحماية أحيانًا ولكـــني أردت نفـــوذا شبيهًا، أردت أن أعامل كما أستحق.

لن أنسى تلك الليلة من ليالي يناير التي كان يعصف فيهـــا البرد برئتي، عندما اكتشفت مديرة المدينة الجامعية -ذات الميول الطبقية- أن إحدى الغرف تعطي إشـــارات ضـــوئية لـــبعض الشباب الذين يسكنون بالقرب من المدينة، ثارت المرأة وجـــن

جنوها وقررت معاقبة كل الطابق وكل غرفة فتح لها حظهـا العاثر شباكا لنشر غسيل المغتربـات، أو هجرهـا أصحابها للمذاكرة في رواق الطابق حتى لا يغلبهم النعاس.

كنا في فترة اختبارات نصف العام وقد دفعنا الخوف لنذاكر بجد وكانت أعصابنا مهتزة لرعب الخاتمة، ولسوء الحظ كانت إحدى زميلاتنا تنشر ثيابها على حبال شدها إلى الشباك.

وأتت المديرة وأمرت عاملات النظافة بإغراق غرف الطابق كله بالمياه، ما إن رأينا الماء يغرق أرضية الغرفة حتى أصبنا بالصدمة فقد تفاجئنا بالنزعة السادية لتلك المـرأة، ووقفت شهيرة تتحدى المديرة وتفهمها أن ما فعلته لم يكن سوى فعل غير مسئول يتنافى مع أبسط حقـوق الطالبـات في المعاملة الآدمية.

وجاء رد المرأة غير متوقعٍ، حيثُ نهرت شهيرة وطلبت منها أن " تغور" لغرفتها التي تجاور مكتبها، فقد كانت شقيقتك - على الرغم من الفارق الكبير في نقاط المستوى الطبقـي بـيني وبينها- لا تفارقني أبدًا، لذا تركت غرفتها الـصغيرة وأتـت لتجرب لذة طعم الفقر معي.

ضربت شهيرة بكلام "مدام فاطمة " عرض الحائط وأخبرتها أنها لن تتخلى عن مساندتنا في ذلك الموقف، فنعتتنا المديرة بأننا

ثلة من الفتيات سيئات السمعة، وأنها ستخبر أولياء أمورنا بما تراه ملائما، حتى يتمكنوا من تربيتنا من جديد قبل أن يفوت الأوان، فسقطت على الأرض المبللة بالماء مغشيًا عليّ.

كان فقداني الوعي هو الشرارة التي أثارت شهوة الانتقام لدى شهيرة، فاتصلت بشقيقها ضابط المباحث الذي كان وقتها في مقر عمله بالقاهرة، وقصّت له ما حدث وهي تبكي وترتجف كلماتها.

وفي خلال دقائق، كان قد اتصل برئيس الجامعة وقائد الحرس وبكل من له السلطة لمحاكمة تلك المديرة، وانقلبت الطاولة على رأسها، فأتت بسرعة تطلب منا في رقة ألا نشهد ضدها فهي مثل والدتنا.

كنا نود أن ندمرها كما سحقت كرامتنا، ولكن شهيرة طلبت منا ألا نفعل ذلك فقد ولد -في تلك الظروف- اتفاق غير معلن الشروط، اتفاق تحملنا نحن آلام حمله وأوجاع ولادته وقطفت شهيرة متعة الحصول عليه ببساطة، وهو أن تتغاضى شهيرة عن الشكوى وتقنع شقيقها بإنهاء الموضوع مقابل أن تطلق المديرة يدها لتفعل ما تريد، تخرج وتعود بدون ضابط أو رابط، وكانت هذه الميزة ثمينة بالنسبة لشهيرة التي كانت تقدر السهر تقديرا خاصًا، وتعشق الخروج خاصة عندما تغلق المدينة أبوابها. كانت.. مثلك تعشق كل ممنوع.

تلك الحادثة أثرت عليّ كثيرا وأقنعتني بأن المال وحده، لن ينفعني أنني أحلم بشريك لديه سلطة ونفوذ يفتح أمامي كل الأبواب المغلقة، ويمنحني مميزات أستحقها، إنني جميلة، طموح، وذكية، لِمَ أتزوّج من شخص يمنحني كل شهر بضعة جنيهات، ولا يستطيع أن يحمي نفسه من إهانة خفير أو صفعة ضابط شرطة؟!

للحق، لقد كنت دائما أحاول أن أمحو من رأسي ذلك التفكير، فإبراهيم لا يستحق مني أن أختصره إلى جيب فقط! رغم أنه لم يقنعني بأن أراه كحبيب وقلب معًا، على الرغم من أنني كنت أحاول أن أحبه ولكن قلبي عجز عن أن يحمله بين غُرفه وشرايينه.

طيبته كانت سببًا لاستهزائي به، كلما طلبت منه شيء وافق، كلما لمحت له باشتهائي لشيء أحضره. كان مطيعًا لدرجة الملل، في إجازاته كان يأتي ليزورنا فيجلس في "مندرتنا" المتواضعة بجوار شقيقي ليتحدثا معا عن أزمة الأرز، أو عن زواج فلان، فخامة سرادق فلان، أو في أحسن الأحوال يشكو له من صعوبة منهج الثانوية الحديث، فقد قرر شقيقي مواصلة دراسته حتى تستطيع زوجته المفاخرة به أمام زميلاتها من الممرضات.

لم يتجرأ "إبراهيم" على محادثتي أمام أخي أبدًا، لم يتجـــرأ حتى أن يرفع عينيه ليراني وقد رققت حاجبي ووضعت(ماسك) من كل الخضروات التي وقعت تحت يدي لأصبح جميلـــة، لم يطلب مني في أيٍّ من المرات أن يقابلني، لم يتجرأ بعد كل تلك السنوات على أن يقبّلني.

أعلم أنه خجول ولكن أي خجل ذلك الذي يمنع أي رجل عن تقبيل فتاة مثلي؟ ألا أمتلك من الفتنة ما يثير لديه الرغبة في لمس يدي أو تطويق خصري؟

طلبت منه في إحدى المرات أن يزورني في الإسكندرية وأن نخرج لنتنزه قليلا، فرفض، معللا ذلك بأنه لا يستطيع فعل ذلك إلا بموافقة أخي!

وشعرت أنني بالزواج منه لن أتخلص من سلطة أخي، بـــل سأضيف إلى تلك السلطة البغيضة سلطة أخـــرى عـــاجزة، إن مواصفات الرجل الذي أرغب في الزواج منه أن يكون طيبـــا كإبراهيم، ولكن أن يكون شجاعا مقداما لا يخشى أخـــي ولا ضابط النقطة الذي يثير الذعر في القرية كلها ولا حتى مـــأمور المركز، عندما أسير بجواره أفخر أنه زوجي، أتمـــنى أن يقـــبلني ككل شاب، والاهم أن يضرب بتلك العادات والتقاليد الريفية - التي أمقتها- عرض الحائط.

ذلك الصباح، كنت أجلس في حديقة المدينة أفلك شفرات أحد خطابات إبراهيم الباردة، عندما أخبرتني إحدى الموظفات أن هناك من أتى ليزور شهيرة، و لم تكن شهيرة لتفوت وجود إحدى الإجازات بدون أن تخرج، وقد أغلقت هاتفها حـــتى لا يكدر صفو مغامراتها أحد، كانت تعشق المخـــاطرة مثلـــك، ذهبت إلى قاعة الزيارات لأرى ذلك الزائر، فلابد أنه شـــخص ما قد أحضر طعامًا لشهيرة ولكن خاب ظني، لقد كان هو.... شقيقها الضابط " طارق".....أتى في ملابس مدنية.

التقيت به وجها لوجه للمرة الأولى.. ارتعدت فرائصي وهو يقوم من مكانه ويمسك بيدي ليصافحني بدفء أشعل النار في رأسي، ناداني باسمي فشعرت بالفخر؛ لأن اسمي لامس شفتيه، تعجبت كيف نطقه بنبرة موسيقية هادئة، أخبرني أنه يعـــرفني جيدا، يحفظ ملامح وجهي الريفية الطيبة، يتخيل لهجتي القروية التي تثير لديه الفضول، ويحاول أن يستشف تلك الروح المتعالية من خلال قسمات وجهي، سحرني بكلماته وذلك البهاء الذي يحيط به، فجلست أتأمل طوله الفارع ورشاقته.

ركزت ملامحي على مساحة صدره العريض، حتى لا تتلاقى عيناي بعينيه، فقد كان لهما جرأة تجمد أطرافي، و لم ألعن الفقر في حياتي قدر ما لعنته لحظتها، تمنيت أن أكون في نفس مستواه حتى أحادثه محادثة الند بالند.

لابد أن شهيرة حكت له عن فقري، فقد كانت تعرف عني كل شيء، كانت أحيانا تقضي معي بعض الإجازات في بيتي ورأت حياتي على طبيعتها، إلا أنني بالرغم من ذلك كنت أحادثه بكبرياء -أعترف الآن- أنه كان زائفًا، ولكنني كنت قد تعودت عليها حتى أخفي الأخاديد التي حفرها العوز في حياتي.

كانت رائحة عطرة تملأ رئتي وتسيطر على حواسي، وقاومت رغبة في إغماض عيني حتى لا أحرم من رؤية ذلك الكائن الأسطوري التي كانت شهيرة دائما ما تحكي عنه، عن قوة شخصيته، رجولته، وحنانه الغامر، ورغم أن رؤيتي له صدمت كل حواسي، إلا أنني تذكرت إبراهيم وتمنيت لو كان مثله، يركب سيارة جاجوار مخيفة، يتحرك بكبرياء وثقة، يحترمه كل من يراه، لقد كانت له شخصية تتناسب مع طموحي تماما، كم سعدت لاختفاء شهيرة ذلك الصباح، فلو كانت موجودة لحرمتني لذة ذلك اللقاء.

سألني عن نفسي وعن علاقتي بإبراهيم، فأخبرته أننا نمهد لبناء عشنا، كنت أكذب فلم أكن أنوي أن أستوطن ذلك العش، فقد أخبرتني تلك التموجات التي اجتاحت صفاء عينيه أنه يدري أنني أكذب.

كان واضحًا أن شهيرة قد حبستنا معـــا داخـــل عقلـــها، فتعارفنا بدون أن تشعر وبدون حتى أن نلتقي، وعندما التقينا، أبت تلك العلاقة أن تبقى في الظل فهي مثل شـــهيرة، ومثـــل طارق، ومثلي، وحتى أنت يا أحمد، تشبهنا في تلـــك الرغبـــة القوية في الظهور.

أخبرني في منتصف كلماته أن ارتباطه بزوجته قد انفـــصم، وأنه يرغب في الزواج من فتاة تقدر عمله وتوافق على تربيـــة طفله الذي يعيش معه بعيدا عن والدته، وتفاعلت معه فقـــال ببساطة لا تتلاءم وحجم الخطورة التي تحتملها كلماتـــه: هـــل تدرين يا نجوى أنه إن لم يسبقني إليك إبراهيم لتزوجتك فورًا.

ضربت الكلمة مراكز الإحساس في مخي، فـــشلّتها تمامـــا، حقيقة شعرت بأنني سيئة الحظ، فلو لم أكن مرتبطة بـــإبراهيم ذلك الرجـــل الجليـــدي لكنـــت الآن بـــين ذراعـــي هـــذا الـــ"سوبرمان"، عدت إلى عقلي مرة ثانية وقلت في نفسي وقد استقرت قدماي على الأرض بعد طول تحليق "إن الارتباط بـــه نعيم لا تستحقه فتاة فقيرة مثلي"، رمى إليّ تلك الكلمة وجلس ينظر إليّ بتمعنٍ رغم إني لم أكن متزينة.

عدت إلى قريتي لأطمئن على شقيقتي زينب، تلك التعـــسة التي طلّقها زوجها قبل أن تضع طفلها الأول بعـــدة أشـــهر،

وذهب ليتزوج عجوزًا عمرها يماثل عمر جدته؛ طمعا في المال، واضطر شقيقي لأن يأتي بها إلى بيتنا حتى يجد لها زوجًا آخر، ولم يطل انتظاره فما إن وضعت طفلها، حتى طلبها أحد جيراننا للزواج وبدون أن يستشيرها أبدى موافقته.

تركت "زينب" وليدها وذهبت إلى بيت الزوج الذي حرم من الإنجاب لعدة سنوات، فأراد أن يعوض ذلك الحرمان فورًا، حرّم عليها إرضاع طفلها، حرمها حتى أن تزور بيتنا حتى لا تلتقي به، فقد تزوج بزينب فقط لتنجب له الصبي الذي سيرثه.

غلبت العاطفة زينب ولم تنصع لأوامره، وفي نفس الوقت كانت تخشى بطشه، فقد كانت تطلب من عائشة أن تحضر لها الطفل فوق سطح منزلنا، وتصعد هي على سطح بيتها بحجة إطعام الطيور وتقوم بإرضاع الطفل.مرت عدة أشهر بدون أن تحقق له أمنيته، فاصطحبها زوجها إلى الطبيب الذي أكد له أنها ما زالت ترضع الصغير، قامت الدنيا وزلزلت الأرض وانهارت الجبال وجفت البحار، وعادت مرة ثانية إلى بيتنا مقطعة الأوصال، فقد ضربها زوجها ضربا مبرحًا تسبب في كسر ذراعها وشج رأسها وانزلاق فقرة من فقراتها القطنية.

كانت قريبة إلى نفسي فأخبرتها بحواري مع طارق فنظرت إلى وقالت: " الجدع ده بيحس نبضك بيشوفك هترضي بيه ولا لا".

قلت في تكذيب: "يا شيخة هياخدني على إيـه؟ ده كـان متجوّز بنت واحد غني قوي لو شـفتي صـور فـرحهم مـا تصدقيش إنه يرضى يبص لي عمره".

قالت في تأكيد: "بنات مصر مفتحين وبيلعبـوا بالبيـضة والحجر.. واحد زي ده عايز واحدة مغمضة ما تعرفش غيره".

قلت بمجادلة:- "الظاهر إنك خرّفتي بـسبب العلقـة اللـي خدتيها..مش كل بنات مصر كده.. كل مكان فيـه المفـتح والمغمض".

قالت:- "يعني إنتي مثلا زي شهيرة أخته اللي كل يوم مـع واحد؟"

- "لا..شهيرة ما بتعملش حاجة غلط هي بـس بتحـب تتكلم وتهزر مع زمايلها.. تتفسح معاهم لكن مـا بـتعملش حاجة بطاله.. يمكن أنا لو كنت متربية زيها كنت هشوف ده حاجة عادية..يا أختي ده أنا بنام بحلم بالسيد أخوكي بيجـري ورايا".

ضحكت في مرارة وقالت:ـ "نصيحة خديها من أختـك الكبيرة.. إوعي تتجوزي إبراهيم.. هتفضلي طـول حياتـك متبهدلة.. لما تبقي دكتورة هيحس إنك أحسن منه.. الرجالـة هنا يا أختي زي ما إنتي شايفة.. ما بيتفاهموش غير بالضرب.. روحي شوفي لك حد دكتور زيك".

رنت الكلمة في رأسي، ولكنني لم أعرها اهتمامًا، سأتزوج إبراهيم، لا أحبه ولكنني مرغمة على الزواج منه بحكم الواجب فنحن لا نعرف الحب، نعرف فقط الزواج، إذا أحبت فتاة وذاع خبر ذلك الحب، حكموا عليها بفضيحة لا تكفرها الدماء، فضيحة تطال شقيقاتها وعائلتها، ولكن عندما يعشق الفتى تدق طبول القبيلة معلنة ولادة رجل.

بكيت في حرقة وأنا أرى شقيقي يجرجر زينب ليعيدها إلى زوجها رغما عنها، متعللا بأن "الست ملهاش إلا بيتها"، وأن لها شقيقات إن سمح لها بهجر زوجها سيتسبب في ضياع مستقبلهن.

لن أنسى نظرة زينب لطفلها الرضيع الذي اقتلعه "السيد" من بين ذراعيها، ودفع به إلى أمي، فما ذنب ذلك الرضيع الذي حُرم من عطف أمه لأنها أرغمت على الارتماء بحضن أحد الرجال لمجرد أنه سيتكفل بها.

لا أنسى عندما نهر "السيد" شقيقنا الأصغر "محمد" عندما اعترض على زيجة زينب قائلا وقد تنافرت أوردته "أختك لازم تبقى في رقبة راجل يحميها".

استمعت إلى نصيحة أمي بأن ألتفت إلى دراستي، وأن أهتم فقط بمشكلاتي الخاصة، حتى لا أموت قهرا وكمدا.

كنت نائمة عندما أيقظتني شهيرة، كانت تتحدث ولكـــني كلما سرت وراء خيط كلماتها تعثرت وعـــدت إلى بدايـــة لا أفهم منها شيئا، وأخيرا طلبت منها أن تكون واضحة فأخبرتني أن طارق سيأتي غدا إلى الإسكندرية وأنـــه طلـــب منـــها أن تصطحبني معها.

لم أجد ردًا سوى الرفض، ولكنه رفضٌ مشرع الأبـــواب، نفذت إليه شهيرة فورًا ووافقت وأنا أتظاهر بالـــضيق وعـــدم الرضا.

في اليوم التالي أخذنا طارق إلى أحد المطاعم الفخمة لتناول الغداء، ثم أخذنا إلى "الشاليه" الخاص بالأسرة في أحد الشواطئ البعيدة، وما إن لامست قدما شهيرة رمال الـــشاطئ، حـــتى خلعت ملابسها فظهر تحتها ثوب البحر وأخذت تستمتع بالمياه الدافئة، فقد كان يومًا مشمسًا تسطع فيه أشعة الشمس علـــى الماء فتنعكس خجلى، فيأسر اللؤلؤ الناتج عن انعكاسها البصر.

جلست على الشاطئ، أراقب شهيرة التي لحق بها طارق بعد أن خلع ملابسه فأطاحت سمرة ذلك الجسد الصلب بعقلـــي، دعاني إلى معانقة الماء فتعللت بعدم معرفتي فن ترويض المياه.

خرج من الماء وقد كست جسده قطرات المـــاء، وجـــاء ليجلس معي، فأشحت بوجهي عنه وطلبت منـــه أن يرتـــدي ملابسه، فابتسم في شقاوة وذهب ليرتدي ثيابه.

جلس قريبا مني، حدثني عن حياته وعمله، وشعرت بأنـــه قريب مني وكأنني أعرفه منذ زمن، لم أعد أخشاه، حتى عندما اقتربت يده لتعانق يدي في رقة، استسلمت ليـــده في شـــوق غامر، وامتدت يده الأخرى لتلامس كتفي وتطوق خـــصري، شعرت بخدر يسري في أوصالي، تقطعت أنفاسي، لم أعد أسمع شيئا، حجبت الرؤية عن عيني وتجمدت كل حواسي، لم أعـــد أشعر سوى بقلبي يخفق في قوة وبالدماء تتصاعد إلى رأســـي، وكدت أصاب بأزمة قلبية عندما تغلبت شفتاه علـــى شـــفتي المتجمدتين.

كانت المرة الأولى التي يقبّلني فيها رجل، كنت أعتقد أنهـــم يبالغون في الوصف، ولكنني تأكدت تمامًا أنه إحـــساس أروع من أن يُوصف، لقد أصيبت كل الأقلام بالشلل فلم يـــستطع كاتب وصف ذلك الإحساس بصدق، ذلك الـــدفء الـــذي أحسست به لأول مرة والحنان الغامر الذي شعرت به والرغبة الملحة في التوحد مع الآخر.

مر وقت طويل كنت أستمرئ فيه قبلاته ولمساته، وفجأة -وقبل أن يتمادى- انتفضت في هلع، ماذا فعلت للتـــو؟ هـــل جننت؟ هل منحت شفتي لشخص لا أعرفه؟ هـــل احتـــضني شخص لا يمت إليّ بصلة؟ سألني عما حدث، فأخبرته أنـــني لم يسبق لي وسلّمت قلاعي لرجل، لم يلمسني بشر، وأن تلـــك

القبلة لو علم بها شقيقي، لكلفتني حياتي، سألني في جزع "ألم يقبّلك إبراهيم؟" فأجبته في براءة إنه حتى لم يمد يده ليسلّم عليّ مراعاة للعرف!

سألني: - أتحبينه؟

فأجابه الفقر في صوتي والاحتياج في عيني وأطلعته على سبب ارتباطي بإبراهيم وأنني لو سنحت لي الفرصة لتركته.

انهارت قواي فقد تجردت من كرامتي مرة عندما سمحت له بالسيطرة على حواسي، والمرة الثانية عندما حكيت له عن فقري وحاجتي.

نظر إليّ نظرة غريبة، وقال لي في حنان غمرني: نجوى هل أسرّ إليك بأمر ما وتأخذينه على محمل الجد؟

قلت في ضعف: تفضل.

قال في جدية: تتزوجينني؟

كادت الصدمة تقتلع لي وزاد "الأدرينالين" في دمي فشعرت أنني على وشك الدخول في غيبوبة ورددت في لاوعي قائلة: أتزوج؟ من؟؟

قال مبتسما وكأنه يتوقع: تتزوجينني أنا.. طارق يوسف ضابط أحبك قبل أن تحتضنك عيناي وأقدر ما تمرين به..بالله عليكِ تزوجيني.

وشعرت كأن أحد ما قد ضربني بشيء ثقيل على رأسي، ففقدت القدرة على الرد، هل يعقل أن يتزوج طارق بي، أنا الفقيرة المعدمة التي تتحاشى النظر للمرآة حتى لا تشعر بالنقص؟

لابد أنه تأثر بحديثي كما أخبرتني أنت يومًا ما "إن أية امرأة يمكن أن تُفقد أعتى الرجال عقله ببضع كلمات تصبغهم بلون الرقة ".

وتذكرت ما حدث لأمي ونحن صغار، عندما كسر ضابط المباحث باب بيتنا وجذب أعوانه أمي من فراشها وسط صرخات الرعب التي تخلت عنها حناجرنا واقتادوها إلى المركز.

لم تكن جريمة أمي سوى أن اسمها "حسنية أحمد الخولي"، فقد اقتلع أحد الفلاحين واسمه "حسنين أحمد الخولي" إحدى الأشجار التي زرعها عمال المجلس القروي وكانت تعيق الطريق فلا يستطيع السير إلى الطريق المؤدية لأرضه، و لم يجد كبير الخفراء بدا من إبلاغ الضابط بأنه يعلم أين هي "حسنية" كما قرأ الاسم ورمى بها إلى الحجز بحجة أنها لم تدفع خمسة جنيهات قيمة مخالفة قطع الشجرة.

لم يكن شقيقي السيد بالبيت، فقد كان في مدينة دسوق يحضر مولد سيدي "إبراهيم الدسوقي" وتأخر فقضى بقية الليلة لدى أحد أصدقائه.

عندما أتى في الصباح، وجد باب البيت وقد تخلّى عن مكانه العتيد الذي رافقه لأكثر من ثلاثين سنة، ووجدنا مكـــومين في غرفة أمي كقطط وليدة وقد استبد بنا الرعب، وهالـــه مرآنــا فسأل عما حدث، فلم نستطع الإجابة، فأجابته أمي وقد أخلوا سبيلها وقالت له وهي تغالب دموعها: مفيش حاجة يا ســيد كانت غلطة في الاسم.

ولم تذكر له أي شيء، فقد خشيت أن تأخـــذه الكرامـــة فيلقي بنفسه بين أنياب "الحكومة "، يومها كنت أنظر إلى عيني أمي وهي تحبس الدموع في جسارة حسدتها عليها، وأنا أتمـــنى أن نجد من يساندنا فلا يستطيع أحد أن يكرر ما حدث.

لقد كنت تلومني على زواجي من طارق، كنت أقرأ ذلـــك اللوم في صفحات عينيك، فقد نمّت عيناك أيها الجسور عمـــا حبسه لسانك، كنت تنظر إلى طارق ثم تنظر لي فـــأقرأ ذلـــك اللوم.

لو كان والدي لواء شرطة مثل والدك، لم يكن أحد ليجرؤ على فعل ما فعلوه بأمي، برأيك هل كانـــت تـــستحق تلـــك "الجنيهات الخمسة" أن تؤخذ امرأة من بين أطفالهـــا اليتـــامى وتشحن كبضاعة نتنـــة في ســـيارة الـــشرطة مـــع المجـــرمين واللصوص؟!

بقيت صامته أفكر فيما سمعت، سأكون مجنونة إذا ما وافقت على الزواج من طارق وسأكون غبية إن رفضت!

ولكن كيف سأخبر أمي بأني سأعيد لإبراهيم "شبكته"؟ لابد أنها ستجدها فرصة مثالية لتمارس هوايتها المفضلة في "الندب والتعديد"، فلم ألتقي في حياتي بامرأة تعشق الغمّ كما تعشقه أمي، فمنذ توفى والدي وهي ترتدي السواد، لن أنسى أبدًا أنها منذ فقدته لم يلمس جنبها الفراش الذي كان يجمعهما، ظلت تنام على الأرض إلى أن أصيبت بالروماتيزم.

مد طارق يده لتلامس ذراعي، فانتفضت مذعورة وطالبته بعدم لمسي ثانية.. سألني فيم أفكر فأجبته أنني أدور في ساقية عرضه المجنون، فابتسم قائلًا: هل يحتاج عرضي كل ذلك القدر من التفكير؟

صدمني غروره ولكنني أجبته في تحدٍ: هل محت ذاكرتك معلومة خطوبتي؟ حتى أترك إبراهيم أحتاج لجيش يساندني ويحارب بجانبي.

ضحك في شقاوة قائلًا: لِمَ؟ ألا أملأ فراغ عينيكِ؟؟ ثم اكتست عيناه جدية قائلًا: من هذه اللحظة سأسبغ عليكِ حمايتي فلن يمسك بشر.

كدت أصاب بالجنون من كثرة التفكير، فعدت إلى قـــريتي وقد ازدادت نحافتي وبـــدت الهـــالات تحـــت عـــيني أكثـــر سوادًا..سألتني والدتي إن كنت مريضة فتعللت بطول ساعات الدراسة.

لم أكن أفكر في قبول عرض طارق، فقد قبلته من لحظتها، كنت أفكر في كيفية التخلص من إبراهيم. وكيفية التأكد مـــن صدق طارق معي، فما أدراني أنه لا يتلاعب بي، قـــررت أن أبدأ في مناوشة إبراهيم على ألا أصرّح برغبتي في هجره إلا بعد أن أتأكد تمامًا من جدية طارق.

في أحد الأيام، زارتنا شقيقة إبراهيم الكبرى تحمل إليّ هدية أرسلها لي إبراهيم وكنت لا أطيقها، فجلست أنظر إلى الأرض أتأمل "الحصيرة البلاستيك" التي تزين "المندرة" أنتظر أن تتفـــوه بإحدى سخافاتها التي تهدف بها إلى التقليل من شأني، كنـــت أعد عليها أنفاسها إلى أن أهدتني أروع كلماتها على طبق مـــن ذهب مخمرة بمناديل من حقد دفين مجهول النسب قالت:

- والنبي يا خالتي أم السيد بنتك داعي لها نبي.. ده إبراهيم كان مدوخني ومش عاجباه ولا بت في البلد، كل مـــا أروح أشوف له عروسة يقول لي عايزها بيضا وطويلة وحلوة عايزها حلوة قوي، من كتر وسوسته لو كنت شفت نجوى قبل هو ما يشوفها.. كنت قلت مافيهاش المواصفات اللي تعجب أخويا.

قالتها وقد افتعلت العفوية والبراءة وصدمت أمي ولكنـــها قالت:

- ما هي نجوى تستاهل كل خير.. دي بنت حلال وطيبة وخام.. حد لاقي بنت خام في الزمن ده؟ لا عمرها وقفت مع واحد على جسر ولا عمرها كلمت حد.

واكتفت أمي بما قالت، ولكنني رفعت رأسي وقد كشفت عيناي عن قهر لطالما تغذى على كلماتها وتـــضخم وقـــد آن الأوان ليبتلعها وقلت: مافياش المواصفات اللي تعجب الزير أبو ليلة بتاعك ليه بقى إن شاء الله؟ مش قد المقام السامي بتاعـــك إنت وهو؟ ولا ناقصة دراع ولا رجل؟ إنتي مـــش هتبطلـــي الكلام الماسخ بتاعك ده؟ خدي هديتك وقومي مـــن هنـــا، وشبكة أخوكي خليه يبعت ياخدها بس بقعدة رجالة عـــشان يطلعوا لي حقي منك.

كادت أمي تسقط أرضًا، وكادت تكذب أذنيها عنـــدما سمعت "وصلة الردح" غالية التكاليف التي أهديتـــها لـــشقيقة إبراهيم، وصرخت فيّ حتى تداوي ما فعلته إهانتي أمام المـــرأة، وطلبت مني أن أغادر المجلس.

على الرغم من غضبي لإهانة أمي لي، إلا أنني سعدت لأنني وضعت أول مسمار في نعش علاقتي بإبراهيم.

بعد عدة أيام، اتصل بي إبراهيم في المدينة الجامعية ورفضت الرد عليه، فلابد أنه أراد كعادته أن يوبخني ثم يراضيني لما حدث مع شقيقته، وأنا لا أرغب في مد أي جسر للمودة بيني وبينه.

على الرغم من انشغالي بموضوع إبراهيم وشقيقته، إلا أنني لاحظت أن شهيرة قد تغيّرت، تقلصت كلماتها، أصبحت تختلق الأعذار حتى لا تحادثني، وفي النهاية تركت الغرفة وذهبت لغرفتها الخاصة بعد أن كانت لا تفارقني، خاصة بعد أن زارني طارق عدة مرات في الكلية وأكد لي بما لا يدع مجالًا للشك أنه جاد في مسألة زواجنا.

كان لشهيرة منزلة في قلبي، لذا لم أتحمل أن تبتعد عني، وذهبت لأستفسر عن السبب، طرقت الباب فدعتني للدخول، جلست بجوارها، وشعرت كأنني لا أعرفها، ذلك الوجه الجليدي الذي كسا وجهها الصبوح لم تكشف لي عنه من قبل، سألتها عما حدث فأجابتني بصدق أنها لا ترغب في زواجي بطارق، وأن والدها وأشقاءها يتفوقون عليها رفضًا واستنكارًا، وأنني تسببت بخلافات تصدع لها جدار الأسرة الهادئة لأنني لا أليق به كزوجة.

ذبحني نصل كلماتها، كانت المرة الأولى التي تكشف لي عن رأيها الصريح، فقد كنت دوما لها الأخت الوحيدة والأثيرة، فظهرت لي حقيقة لم أتصوّر أبدًا أنها موجودة.

أخبرتني أنها عندما عرفتني بشقيقها، كانت تظن أنها نزوة ولم تتصور أبدًا أنني سأوقعه في شرك قلبي، فأمثالي من الفقيرات لا يجب أن تتجاوز نظراتهن الخطوة اللاتي يخطينها.

قمت أجرجر جسدي، ووصلت حتى حقيبة ملابسي فجهزتها وعدت إلى بيتي الذي تركته يغلي، وكنت أنوي ألا أعود إليه إلى أن يخمد البركان الذي أثرته بردي البذيء على شقيقة إبراهيم.

دخلت غرفتي وأغلقت الباب، وظللت أبكي أملًا دُفن قبل أن يولد إلى أن جفت مدامعي، لقد وقعت في حب طارق، تسلل غرامه إلى ضلوعي، كنت أعتقد أنني أرغب فقط في تحسين حالتي بزواجي منه، ولكنني اكتشفت أنني غارقة في حبه، صدى صوته لا يفارق أذني، وبريق عينيه يضيء ظلام قلبي. كيف يمكن أن أبتعد عنه؟ لقد تمكّن حبه مني تمامًا، حتى أصبحت لا أرى سوى طيفه، لم يعد هو ذلك المخلّص الذي سيخلصني من آلامي، بقدر ما أصبح مصدرها.

كنت أبكي من الذل الذي شعرت به عندما اخترق رصاص شهيرة قلبي، لكنه تحدى أهله من أجلي، إنه يحبني فعلًا، لن أدعه يتمادى في تحدي أهله، لن أتزوج رجلًا تحتقرني أسرته، لن أقابله، لن أحادثه مرة ثانية، سأحاول بكل طريقة أن انتزع حبه من قلبي، ليس لأنه يستحق أن أخذله فكرامتي لا تستحق أن أفعل بها ما أفعل.

في إحدى الليالي أتى شقيقي إلى غرفتي وطلب مني أن أذهب لشقيقة إبراهيم وأن أعتذر لها، فرفضت وأخبرته أنني لن أعتذر لتلك "الحقيرة" التي عيّرتني بفقري، وصفعني "السيد" عدة صفعات ولف شعري الطويل على يده وضرب برأسي الحائط، و لم يتركني إلا عندما مثّلت عليه أنني فقدت الوعي.

أصابتني حمى شديدة و لم يسمح شقيقي لأمي أن تحضر لي طبيبًا، فقد كان غاضبا مني لدرجة أنه فرّط برغبته في حياتي، كانت الحمى تأكل جسدي وأمي وشقيقاتي يبكين بجواري ولا يستطعن كسر أوامر "سيد"، وذهبت شقيقتي الصغرى "عائشة "لأحد الصيادلة، ووصفت له ما بي، فأعطاها عددا من الأدوية، أحضرتها عائشة في سرية تامة، وكنت لا أرغب في الشفاء، فقد فقدت رغبتي في الحياة، ولكن أمي أرغمتني على تناولها.

ما إن بدأت أستعيد صحتي حتى بدأت بالاهتمام بدروسي التي كنت قد أهملتها، تركت المدينة الجامعية وانتقلت للسكن

في إحدى بيوت الطالبات حتى لا ألتقي بشهيرة ولا شـــقيقها الذي كان يأتي للكلية ليراني، فأروغ منه، إلى أن وجدته أمامي ذات مساء في بيت الطالبات، جاء ليستفسر عمـــا حـــدث، فألقيت عليه ثقل ما أشعر به، وأخبرته أنني أرفض الزواج منه، وتركته وصعدت إلى الغرفة أبكي حسرة، لقد كدت أرتمي بين ذراعيه عندما رأيته ولكنني كنت عنيدة.

عدت إلى قريتي ودفن لدي أي أمل بلقائه وأخذت أشـــغل نفسي بالإعداد لزواج إحدى شقيقاتي، حتى أتخلص من تلـــك الحسرة التي تعصف بكبدي.

كنت أساعدها على ارتداء ثوبها الأبيض وأنا أتوجع لأنـــني لن أرتديه لشخص أحبه، كانت فرحة وكنت أتظـــاهر أنـــني أغترف من بحار السعادة، رغم أن يديّ أخطأتا تلك البحـــار وأبتا إلا الاغتراف من بحار الخيبة والوجع، لم تكـــن ملامـــح وجهي الباسمة سوى قناع يخفي دموعا خجلت من التفريط فيها في ليلة كهذه.

في أثناء الحفل، همست لي عائشة أن هناك من يود رؤيـــتي، كذبت عيني عندما رأيت شهيرة وقد أتت بـــصحبة طـــارق، كنت متألمة مما فعلت بي، نسيت كل شيء عندما رمت بنفسها بين ذراعي وهمست لي أن أسامحها، أما هو، فقـــد ابتـــسم في

هدوء ومد يده ليصافحني على مرأى من شقيقي، و لم يتغلغل ذلك الرعب المألوف بكياني، ولكن أحاط بي أمانٌ لم يسبق لي أن شعرت به في موقف مماثل.

انتحت بي شهيرة جانبا وأعطتني "موبايل" وطلبت مني الاحتفاظ به ليكون أداة التواصل بيني وبينه، ليلتها شعرت كأنني قد ولدت مرة ثانية، لمسة يده أمدتني بطاقة أشعرتني بالحياة التي فقدتها، شعور ممتع أن تتألم... وتتألم....ويشتد ألمك...ثم يشتد أكثر، وفجأة يزول الألم تمامًا ولا يتبقى منه سوى شعور بخدر لذيذ يريح الأعصاب.

قمت لأسلم على إحدى قريباتي، فالتقت عيني بعينيه، فتسلل ذلك الخدر إلى رأسي بنعومة وظللت أنظر إليه وقد تجمدت كل حواسي، لن أنسى تلك النظرة التي سلبت إدراكي وجعلتني كالمنومة مغناطيسيًا، لا أتذكر كيف كبحت مشاعري وقاومت رغبتي في الركض لأرتمي داخل مملكتي بين ذراعيه.

نظرته إليّ منحتني إحساسا بعطش لم أشعر به من قبل، عطش إلى لمساته، دفء صدره، إلى شفتين أفضلهما على أعذب الأنهار.

أفقت على صوت عائشة وهي تهمس في أذني "اختشي على دمك وبطلي بصبصة للراجل، أخوكي لو خد باله هيعدمك العافية".

في منتصف الليل أفقت على صوت حركة "الموبايل" ورددت بسرعة حتى لا يفتضح أمري، عندما تسمعت كلماته، استرسلت إلى أشواقه تزف خلجات قلبه، كان مشتاقًا تقطر كلماته رقة، ظل يحادثني إلى السابعة صباحًا وهو يفرش أمامي أغلى أمنياتي في حياة سعيدة وحب لا ينتهي ويطالبني بأن أكون أكثر حسما بالنسبة لإبراهيم، و لم ينه المكالمة إلا بعد أن أقسمت له أنني لن أهدي نفسي لسواه.

كنت جالسة أقرأ إحدى الروايات التي أعشقها، فتوهمت أنني أسمع صوت إبراهيم في بيتنا، واقشعر بدني وشعرت بالبرودة تجتاحني، وأتت اللحظة الحاسمة عندما أتت عائشة شقيقتي تطلب مني أن أخرج لأقابل خطيبي العائد، فأخبرتها أنني لن أقابله.

أتت أمي بعد قليل لتطلب مني تبديل ملابسي والخروج لملاقاة خطيبي، فصممت على عدم الخروج فجذبتني من شعري في قوة وهمت بصفعي، لولا تدخل عائشة التي تلقت الضربة بدلا مني وبرغم ذلك رفضت الخضوع.

وسألني "السيد" عن سبب مقنع لما أفعل، فأخبرته أنني لن أتزوج "إبراهيم" فهو لن يستطيع حمايتي من تجبر شقيقاته، ربت ظهري في هدوء لم أعتده منه، وطلب مني ارتداء ملابسي

لأقابل خطيبي، فرفضت مصممة، حاول إقناعي ولكن رأسي تيبس ولم يتصور أنه فشل في جعلي أنفذ أوامره، فما أحسست سوى بسيقان الكرسي الخشبي تنغرس في ظهري.

وخرست من هول الألم، فاحتضنتني عائشة، وهي تصب اللعنات على شقيقي الذي لا يصلح للتفاهم سوى مع البهائم، ولم أخبر طارق بما حدث حتى لا يستهين بي وبأهلي.

ذات مساء جاءني" السيد" ليخبرني بأن إبراهيم سيزورنا بعد قليل، ويجب أن أستعد للقائه حتى لا يضطر "السيد" إلى تنفيذ يمينه حيثُ حلف متوعدا "علي الطلاق تلاتة لو ما اتعدلتي ومشيتي زي ما كنتي ماشية لهعلقك في نخلة البلح اللي قدام الدار".

وخوفا من جعلي أضحوكة أمام أهل القرية، قمت بارتداء ملابسي وخرجت لأقابل إبراهيم، لم ألقي عليه السلام، وجلست بجوار أمي أستحضر كل طاقة الحب التي شحن بها طارق قلبي، كان الصمت هو الحديث المشترك بين الجميع، فقام "السيد" وبعد قليل نادى والدتي بحجة أن هناك من يطلبها.

كانت المرة الأولى التي أنفرد فيها بإبراهيم، فيما مضى كم كنت أتمنى لحظة كهذه، أما الآن فأنا جالسة في مقابله أنظر إلى

"الحصيرة"، فترسم عيناي عليها مثلثات قائمة الزاوية وحـــادة ومنفرجة وأبحث في إمكانية أن تتكون بداخلها عدة دوائر.

بعد وقت بدا ثقيلًا جاثمًا على أنفاسي قال بكبرياء: "أمـــال إيه اللي أنا سمعته ده؟"

قلت ومازلت أتدرب على تماريني الهندسية في جد: "خير؟"

قال وقد اكتست ملامح صوته بذكورة لم ألمحها به من قبل: "إنتي صحيح شتمتي أختي؟"

قلت: "لا لسه"

قال: "يعني إيه لسه؟"

أجبت: "يعني لو رجع الزمن تاني هرد عليها الـــرد اللـــي يتناسب مع كلامها".

صمت...وطال صمته.... ثم قال في افتعال: "إنتي عارفـــة أختي دي هي اللي مربياني وبتخاف عليَّ وتحب إن خطيـــبتي تبقى أحسن واحدة في الدنيا".

تجاهلت كلماته وتركته يحدث التمثال الذي تحولـــت إليـــه فأكمل: "أنا عارف إنها بتحب شوية تعدل على النـــاس إنـــتي استحمليها عشاني".......وأكمل في تودد: "ولا أنـــا ملـــيش خاطر عندك؟"

ذبحه خرسي فصمت برهة ثم قال: "إيه رأيك بكره أحـــدك ونروحو القناطر؟"

نظرت إليه في اشمئزاز وعقلي يعقد المقارنات بين كلماتـــه وهمسات طارق فقال في سرعة:

- "بلاش.. تعالى نروحو إسكندرية نتغدو هناك ونـــدخلو سيما وبعدين نقعدو شوية على الكورنيش".

تململت في جلستي ورسمت ملامحي أبشع لوحة لعدم الرضا فأكمل:

- "يا بت الناس استهدى بالله وتعالي معايا نروحو لأخـــتي نراضوها ونطلعو أي حتة نتفسحو وبلاش الغم ده، أنا بقى لي سنة بحالها عايز أشوفك مش معقول لما أرجع ألاقيكي شـــايلة طاجن ستك وعاملة كده".

قلت وقد أعماني الغضب:

- "كمان عايزني أنا اللي أروح أصالح أختك؟ بعـــد مـــا مسحت بي الأرض؟ بقولك إيه روح شوف لك واحدة تانيـــة تبقى بمواصفات أختك".

احمرت عيناه ونضحت ملامح وجهه بإمـــارات الغـــضب وقال:

- "إنتي بتألسي على أختي؟"

قلت ساخرة:

- "لا سمح الله.. ده حتى يبقى عيب..هي بس اللي تــألس عليا وتمسخر فيا أنا وأمي.. أصلنا مش أد المقام".

قال في حسم:

-"ما تبطلي كلامك الفاضي ده؟ قومي نــادي أخــوكي أحدد معاه كتب الكتاب والفرح خلي الشيطان اللي دخل ده يطلع".

قلت:

- "إبراهيم...ما تهددنيش بأخويا ولا بغيره..إنــت محتــرم وطيب بس أنا خلاص مش عايزاك..كفاية لغاية كده".

وضعت أمامه خاتم الخطبة، فشعرت أنه فقــد الــوعي أو كاد، وخيل إليّ أنني أشعر بدوران الأرض تحت قدميه، لكــنني دربت قلبي على القسوة، إن خذلتني رقة قلبي الآن، سأقــضي كل حياتي ذليلة.

ذهبت إلى غرفتي، وبعد قليل جاءني شقيقي وأخــبرني أنــه حدد وإبراهيم موعد الزفاف، وطلب مــني أن أجهــز كــل احتياجاتي، فأخبرته أنني لن أتزوج رغما عني، وتلبستني قــوة

خفية جعلتني أخبرهم أنني أحب طارق ولن أتـزوج سـواه، وطالبت أمي بأن تفي لي ككل أم تمر ابنتها بموقف مشابه وألا تساهم في تفتيت قلبي بتلك العلاقة التي ستغتال مشاعري.

صرخت أمي ولطمت خديها وشقت جيبها، وبـدون أن يستفسر شقيقي جرجرني من شـعري وكـال لي اللكمـات والصفعات وسط بكاء شقيقاتي وتوسلاتهن.

وتحملت..... لقد أحببت طارق وشعرت بأنه حياتي، كان هو الرجل الوحيد الذي زلزل مشاعري وعلمـني الإحـساس بالأمان والحب، الرجل الوحيد الذي أشعرني بأنوثتي.

وتوسلت لعائشة حتى تخبر طارق بأنني أحتاجه، فقد صادر شقيقي "الموبايل" ولا أستطيع الوصول إليه وأنا أسيرة، وتحينت عائشة الفرصة وهاتفته وحكت له كل ما أصابني، فطلب منها أن تطمئنني وأخبرها أن توصل لي رسالة شفهية منـه عنوانهـا "أحبك" ومحتواها "لن أتخلى عنك فأنت حياتي".

أحسست بالراحة تتسلل إلى كل جسدي، فها هو قد جدد بيننا عهد الحب، وفي المساء أخبرتني عائشة أن طـارق أتـى ليزورنا، فطار فؤادي، وطلبت منها أن تسترق السمع، لتـرى رد فعل "السيد".

وعادت بعد برهة لتخبرني أن "السيد " يكاد يجهض كـــل أحلامي في الزواج من طارق، فقد أخـــبره أنـــني ســـأتزوج بإبراهيم، وأنه لا داعي لكل محاولات طارق اليائسة للحصول عليّ.

وشعرت بجذوة تضاهي قرص الشمس تتوقد بين أضـــلعي، وأنا أتخيل طارق وقد ثار لديه كبرياؤه وترك شقيقي وعاد إلى عالمه وهجر عالمي البائس، وفرطت بدموعي عندما تـــصورته يضم لصدره امرأة أخرى، جميلة، ثرية وراقية، بينما أنا أصطلي بجحيم ذراعي إبراهيم.

كانت المرة الأولى التي أحصل فيها على حق الاختيار، فقد أمسك" السيد" بيدي وأخذني لطارق وسألني أمامه إن كنـــت أرغب في فقدان انتمائي لأهلي بالزواج من طارق، أو الحصول على رضا أمي وعدم تعريض شقيقاتي للعـــار بزواجـــي مـــن إبراهيم.

لن أ٣خفي عليك.....كان قراري الأصعب والأكثر ألمـــا، شعرت بقلبي يتمزق كقطعة قماش جديدة

ووقفت أنظر لأمي و"السيد" ثم شقيقي الأصغر "محمـــد"، وكدت أتراجع، لولا أنني لمحت تلك النظـــرة المتحديـــة الـــتي ارتسمت بعيني طارق –وأنت تعلم كـــم كانـــت تـــؤثر بي

نظراته!- فتملّصت من قبضة شقيقي ووقفت بجانب طارق الذي ندت عنه تنهيدة واثقة.

كذبت سمعي عندما سمعت "السيد" يطلب من محمد أن يحضر مأذون قريتنا، فلم أتعود أن تتحقق أحلامي بتلك السهولة، و لم أصدق إلا عندما عُقد قراننا!

كنت أراقب ملامح شقيقي الأكبر وقد جمدت، أما والدتي فقد غرقت في بحر دموعها كعادتها في كل مناسباتنا السعيدة، وعلى الرغم من حالة الوجوم التي عمّت المكان، فقد صرخ "السيد" بعائشة، يطلب منها أن "تزغرد" لشقيقتها العروس، وما إن فعلت حتى جاء الجيران ليستفسروا عن سبب تلك الزغاريد، وشاهدت بعيني نظرات الاستغراب على وجوههم، فجميعهم يعلمون أنني لإبراهيم.

بعد أن أنفض الجمع، طلب مني" السيد " مرافقة زوجي، وأعلنها لي صراحة أنه يشهد الجميع أنه قد تبرأ مني، ومثله فعلت والدتي، فغامت الدنيا من حولي، ولكنني تحمّلت الطعنة ببسالة، وسيطرت على كل الزلازل التي ضربت الأرض من تحت قدميّ، وقبلت كف أمي، وغادرتهم وقد تضخم كبريائي لدرجة منعتني من البكاء .

بلا ثوب أبيض، بلا فرحة، بلا أهل وبلا أي شيء، أخذني من يدي لأجلس بسيارته، وقد تملكتني حالة من الصمت،

يحادثني فتأبى الكلمات مغادرة حلقي، لم أسأله حتى إلى أين سيذهب بي فقد تشابهت أمامي كل الأماكن بعد ما حدث.

هاتف والدته وأخبرها ألا تنتظره، وسمعته يخبرها أنه تزوج وفي طريقه إلى شرم الشيخ ليمتص رحيق شهرنا الأول، وسمعت صياحها وهي تتهمه بالجنون والتهور، وتسأله عن العروس، فأخبرها في سعادة أنها أنا، وطلب منها في صرامة أن تبارك لي زواجنا وأمسكت بالهاتف لكي أحادثها فصفعتني بكلمة "مبروك" ثم أغلقت الخط.

كانت أسوأ هدايا زواجي على الإطلاق، ولاحظ هو وجومي فقال ساخرا: لم أر عروسًا من قبل يحمل وجهها الجميل مثل هذا القدر من الاستياء.

أغمضت عيني و لم أرد فتابع:

- لا تنزعجي، إن والدتي سيدة طيبة، ولكنها طبقية قليلا، وبمجرد أن تعتاد عليكِ ستتحسن علاقتها بكِ فلا داعي للقلق.

أغمضت عينيّ محاولة الاستغراق في النوم، ولكن منعني التعب الذي أحاط بي، لقد حققت كل ما أردت، ولكن كل الأحداث من حولي كانت تضرب رئتي بعنف.

كان من الصعب علينا أن نتواصل في ليلتنا الأولى بعد كل ما لاقينا من الإعياء، فقط طلبت منه أن يضمني إلى صدره،

وغرقت في النوم، لأستيقظ صباحا على صوته وهـــو يغتـــسل ويترنم بلحن أجنبي لم أفهم كلماته، وعندما اقترب من الفراش، تظاهرت بالاستغراق في النوم، ولكنه جلس بجواري يـــتلمس جسدي ويهمس لي بكلمات طغى عليها الشوق.

انتفضت جالسة، فتفاجأ واعتقد أنه أفزعني، فأذل لي كـــل كلمات الاعتذار وأنا أتظاهر بالانزعاج لعله ينـــأى بلمـــساته المثيرة عني.

بعد الإفطار، لم يعد لدي وسيلة للهروب، فما إن اقتـــرب ليقبلني حتى زجرته دموعي، فوعدني ألا يقترب مني حتى أتخلص من ذلك الحزن، واستبدل به اشتياقا إلى حبه الغامر ومـــشاعره الفياضة.

أخذني لأستكشف تلك المدينة الرائعة، وتناولنا الغداء معا في أحد المطاعم الراقية، وركبت معه لأول مرة "الجلاس بـــوت"، وأخذنا معا نراقب حياة أخرى تقبع تحتنا تستحق منـــا كـــل تقدير، وعندما ملّت الشمس البقاء وحيدة في سمائي، وبـــدأت أنوار المدينة الساحرة في التعبير عن وجودها، جلست أدعو الله مخلصة أن تحدث معجزة لتبعده عني، وأنا أرى عينيه ترســـل لي -في كل لحظة - تهديدا بافتراسي، وتحققت معجزتي الـــصغيرة على يديك، عندما هاتفته لتخبره بأن قلب والدتك قد أعلـــن

عصيانه وأنا ترقد بإحدى المستشفيات، فتركني ليذهب إليها مع وعد هزيل بأن يأتيني في صباح اليوم التالي، ومازلت إلى الآن -وبرغم كل شيء- أحفظ لك صنيعك.

ذهبت إلى فراشي تتقاذفني أمواج القلق وقد غاب عني من يجدف بقاربي في ذلك المحيط المخيف، وشعرت بأنني أفتقده، أفتقد دفء صدره ورائحة جسده، وأحسست بضميري يطعنني لأنني بخلت عليه بجسدي بعد أن منحني هو كل شيء، ووجدت نفسي أبكي، فالعالم بدونه قبر كبير مظلم حتى ذلك القمر المرتفع لا يثيرني نوره فأنا أفضل قمري الغائب على كل شموس العالم.

كنت نائمة عندما أيقظني برفق، وما إن فتحت عيني ورأيته حتى ارتميت بين ذراعيه وبكيت وطلبت منه ألا يتركني ثانية، فوعدني أنه لن يبتعد عني سوى بالموت.

كانت المرة الأولى التي أشعر كأنثى، والتي أعامل فيها كشيء نفيس، ولكنني كنت مذعورة على الرغم من محاولاته المستميتة لطمأنتي، فأهوال ليلة الزفاف التي تطبع في رءوس فتيات الريف لا يمكن التخلص منها بسهولة، ولكنني وبعد كأسي الأول سلّمت له قلاعي ورفعت له راياتي البيضاء ليكتب عليها بدمائي أول سطر من قصته معي.

في القاهرة، كانت حياتنا مختلفة، عاد إلى عمله وأصبح يتركني وحيدة لفترات طويلة، بدأت فيها أشعر باليتم، فأذهب لوالدته حتى أقلل من ذلك الإحساس الغامر به، اختلفت معاملته لي وأصبح عنيفًا على غير ما توقعت، عصبي المزاج، غاضبا دائما على الرغم من محاولاتي لإرضائه بالاهتمام بطفله، وما زاد من إحساسي بالتعاسة، بداية العام الدراسي، وذهبت إلى الكلية وكان التوفيق بين دراسة الطب وبيت وزوج غاضب وطفل هو المستحيل، وطلب مني أن أهجر دراستي وأتفرغ له فرفضت في عناد.

كنت في صراع بين رغبتي في إرضائه وطبيعتي الجامحة، كان مسيطرا يقدس السلطة، وأنا أحارب من أجل كياني كامرأة لها الحق في إدارة شئون عالمها، فكنا دائما نصطدم، فهو لا يتنازل وأنا أكره أن أكون الطرف الضعيف في العلاقة.

كان يقرأني من الداخل، أما أنا فكنت لا أرغب في فهمه كنت أريده فقط أن ينسى أنني كنت ذات يوم فتاة فقيرة فضّلت حبه وماله على أهلها.

ذات ليلة، عاد من عمله غاضبًا فوجدني مستسلمة لسلطان النوم، ثار وصرخ بي، فانتفضت من نومي لأواجه جحيم اتهاماته، أخبرته بتعقل أنني لم أتوقع قدومه، فهو يتركني أيامًا

طويلة ولا أدري متى سيعود، صفعني، وجذبني من شعري ليذكرني بكل تفاصيل ماضيّ البائس.

ذهب، فجلست أبكي وأتحسر على من ظننت أنه منقذي، لم أتوقع أبدًا أنّ من حررني بسلاح الحب هو من سيكبلني بقيوده، ليلتها أثبت لي طارق بالدليل القاطع أن كل رجل هو شقيقي، وإن اختلفت الملامح ونوعية الملابس، الاختلاف الوحيد فقط في نوع القناع الذي يضعه كل منهم ليظهر بالطريقة التي يحب أن يخدع بها من يراه، صدق يوسف بك وهبي "الدنيا مسرح كبير"!.

للمرة الأولى التي أشعر بمثل هذا القدر من الغضب، مرة عندما أهانني وآذاني، ومرة ثانية عندما جلست أبكي، لأنني لا أملك أن أعترض، تمنيت أن أهجر منزله وألجأ إلى أهلي كما تفعل كل امرأة عندما تتعرض للإهانة، وأدركت حجم خسائري عندما اخترت درب الحب، وجلست أتذكر أهلي وأتألم لفرقتهم، لكنني أقنعت نفسي بأنني حتى لو كنت على وفاق معهم ولجأت إليهم لابد وأنهم سيكررون معي ما فعلوه مع زينب من قبل.

و طرقتَ أنت الباب، طلبت مني أن أبدل ملابسي؛ فقد طلب منك طارق مرافقتي لمنزل والدتك لأنه سيقضي ليلته خارج القاهرة، ليلتها دعوتني للحديث معك، أخبرتني أنك

تعلم أنه آذاني واعتذرت لي عما فعل وأخذت تختلق الأسباب لجعلي أسامحه.

حدثتني لأول مرة عن حياتك الخاصة، حكيت لي عن حب دام عدة سنوات وانتهى بمجرد الزواج، كنت تعسًا مثلي، وشعرت للمرة الأولى بالتعاطف مع عينين سكنهما اليأس وفقدتا لأول مرة البريق الجامح الذي يستوطنهما، بدوتَ مسالمًا، رقيقًا لا أدري إن كنت ارتديت ثوب الرقة ليلتها لتكسب تعاطفي أم أن رقة طارئة زارت خلاياك لتحول علاقة العداء المستتر بيننا إلى بذرة مودة.

تحادثني كشقيق حانٍ يشكو لأخته ما يعاني، فاجتذبت تعاطفي..قلت لي بطرفٍ ساهم: أشعر كأنني أتحدث مع جزء مني، جزء آذاه طارق، ليتني كنت هو وكنتِ أنتِ.. أنتِ.

لمست كلمتك كل جراحي، فبعد كل تلك الأهوال لم أتعلم أن الكلمات شباك الرجل البارع يرميها إلى المرأة فتتعلق بأهدابها، شكوت لي مما تعاني، شكوت لي زوجة تخلت عنها المشاعر وتحولت لممرضة لطفلتها المريضة، شكوت لي رجل تناسى كونه رجلًا وعاش حياة راهب تخلّى عنه الرب لسوء نواياه، رجلًا يقضي حياته ما بين مطارق العمل ومشانق مسئولية أسرة ما إن تكونت حتى ألقت بقلبه إلى أعمق أعماق

الوجع، ليلتها شاركتك الألم نبضات قلبي و لم أجد سوى صمت بائس أرد به على دموع ملأت عينيك وحولت وجهك إلى نغمة من جحيم.

وأتى طارق في صباح اليوم التالي، مشرقًا كشمس نفضت عنها كل الحجب، ابتسم عندما وجدني أتناول إفطاري معك وقال في شقاوة: "صباح الخير يا قمري".

كدت أترك المكان لولا أن أمسكت أنت بذراعي وطالبتني بالتخلي عن غضبي لصالح حب يجب التمسك به، وطالبت طارق بالركوع أمامي لتقديم اعتذار يليق بما فعل، وعلى غير ما توقعت تخلّى طارق عن كبرٍ يملأ خلاياه وركع أمامي وطأطأ رأسه وقال بصوت خفيض:" سيدتي...تحملي غبائي وغروري...تحملي رجل يستظل بحبك ويضع بقلبك كل ما يمتلك من مشاعر وأعدك ألا تمتد تلك اليد إليك مرة ثانية إلا بالحب"

وأمسك بيدي ليبثها قبلة أضاءت من حولي ذلك الصباح شتوي الملامح، وقدم لي هدية كانت خاتمًا ماسيا يحمل قلبًا صغيرًا طالبني بحمله دائما، ثم حملني بين ذراعيه كطفلة عارية تحتمي من المطر، ولكن بالرغم من كل تلك الدفقات الشعورية

التي غمرتني، لم أنس تلك النظرة التي نحتت على وجهك، نظرة طفل تائه اختطفت منه أمه، فأصيب بالخرس ولكـــن رسمـــت عيناه أسوأ تعابير الفقد والضياع. لم يفِ "طارق" بوعده معي، فقد ظل على حاله من فقدان للسيطرة على أعصابه حتى كـــاد يقتلني، تلك الليلة التي ولدت بها ابنتنا "نهيل"، كانت العلاقـــة بيننا قد انقطعت تماما منذ بداية الحمل، فقد اعتـــل مزاجـــي وتضاعفت ساعات نومي حتى إنني أهملت دراستي، تحملـــني في البداية ولكن سرعان ما فقد صبره وآثر التغيب لفترات أكـــبر حتى لا يلتقي بي، إلى أن أتاني ليلتها كطوفان عجزت سدودي عن صده، حطم ما بيننا من جسور، ووقفت أمامه كـــشجرة عارية الأوراق تضربها أعتى أعاصير الغضب، تناسى أنني أحمـــل بداخلي جزءًا منه، فلم يتحمل جدالي معه وامتدت يده تحتـــث بقايا حبه داخل كبدي، و لم أتحمل سورة الغـــضب، فـــارتفع ضغط دمي ليهدد بذبح كل محاولات الصلح معـــه، شـــعرت بالموت يحتضنني، يعتصر أضلعي بشدة، ويـــضرب رأســـي في قسوة، ووجدته يمسك بيدي ويهمس إليّ طالبًا مني التمـــسك بالحياة من أجله، فاستسلمت للموت نكاية به، سحبت يـــدي من بين يديه وأشحت بوجهي عن لهيب أنفاسه وحلقت بعالم آخر منحته لي حقنة مخدر عادلة.

لم تكن تلك الحادثة فقط تاريخ ميلاد لطفلتي "نميل" وإنما كانت بداية ميلاد جديد لعلاقتي بطارق، فقد أثر به ما حدث ليلتها حتى إنه غيّر كل سياساته معي، تجنّب العنف، حاول بكل وسيلة أن ينسيني ما حدث، اهتم بي وبالطفلة وبمحمد، وتحوّل بيتنا إلى غيمة صديقة تظلل حياتنا وتبث فيه روح المحبة لسنوات.

قبيل غروب يوم صيفي، بدت القاهرة فتاة جميلة مشتملة برداء أبيض شفاف يشف على تفاصيل جسمها البديع، وقفت أدخّن متأملة المشهد عبر الزجاج، محاولة تجاوز إرهاق يوم طويل من العمليات الجراحية.

التقطت هاتفي لأتصل بطارق ولكنه لم يرد، فشعرت بوخزة في قلبي إذ لابد أنه مازال يعاني ذلك المزاج المتكدر، حاولت كثيرا أن أفهم مما يعاني، ولكنني فشلت، كان ساهمًا شاردًا ينظر إليّ بنظرات زجاجية المعاني وعندما أسأله..... تنكسر مشاعري على صخرة كبريائه.

طرق الباب طرقات خفيفة فأذنت للطارق بالدخول، كان رئيسي في العمل وصديقي المقرب "محمود" الذي دلف إلى الغرفة الصغيرة وجلس على الفراش الذي كنت أتمدد عليه منذ برهة.

كان غريبا أن يأتي إليّ.. سيطر الصمت على الموقف لثوانٍ فبادرني قائلا: دكتورة نجوى، للمرة الأولى يرتجف المبضع بيدك، لذا أردت أن أعلم ما حدث، تدرين أن الخطأ في مهنتنا يساوي حياة إنسان.

صمت "محمود" وشعرت بعينيه تطالباني بأن أفتح له ملفًا واريته ثرى كبريائي، فلم أستطع النطق، كانت كرامة زوجي لديَّ أغلى من الانكسار الذي شعرت به نتيجة تصرفاته الأخيرة معي، طال صمتي إلى أن تكلم هو أخيرًا وطلب مني أن أفكر جديًا بأخذ إجازة لعدة أيام حتى استرد حماسي الغائب لعملي.

أنهى صديقي الحائر ذلك الموقف بالانسحاب من الغرفة الصغيرة، فجلست على السرير الصغير الذي يتوسّط الغرفة وقد مل عقلي كثرة التفكير، فأبى إلا أن يكمل ما أبدؤه دوما، فقد أشفق عليّ من شدة الألم ورفض إمدادي بمادة أستطيع من خلالها أن أخرج انفعالي في صورة بكاء.

كنت أتمنى أن أعود إلى البيت لأنعم بحمام دافئ وبعض الراحة، ولكن خاب أملي، فقبل أن أشرع في تبديل ملابسي، فوجئت بحالة من الهرج والمرج في المستشفى، ففهمت أنه يستقبل ضحايا حادث ما وقد تعودنا جميعًا ذلك، وجدت من

يستدعيني إلى إحدى غرف الطوارئ فذهبت بسرعة وقد انقبض قلبي، وكدت أعجز عن التنفس، وقد اعتراني شعور غريب..رأيت أحد أطباء الطوارئ في طريقي فسألته عن سبب استدعائهم لي.

قال وقد ذابت ملامحه المتكبرة: لقد استقبلنا ضحايا حادث سيارة ويقال إنهم أقاربك.

طار صوابي وعقدت الصدمة لساني وظللت لعدة دقائق ساهمة لا أستطيع مقاومة أثر الخبر، فلا أقارب لي هنا، وبدون أن أدري وجدت نفسي وقد رحت أركض وقد تضاعفت المسافة.

في لمح البصر كنت قد صعدت إلى غرفة العمليات ورأيت مشهدًا أثار الرعب في كل أوردتي، فطارق ملقى على طاولة العمليات وفريق من الجراحين يحيطون به، وقفت أراقبهم من خلال الزجاج وقد تجمدت خلايا دمي، ولم تعد عيناي تريان سوى الدماء التي تأبى أن تستوطن ديارها بداخله، وأيادي الجراحين ترتق جروح طارق.

تجمع حولي عدد من زملائي الذين علموا بالكارثة، كنت أبتهل إلى الله ألا يضن عليّ به، فأنا لا أمتلك من حطام الدنيا

سواه، لقد تمردت على أهلي، تمردت على التقاليد التي تحكم كل النساء وهجرت عالمي كله لأفوز به، لم أستمع لكلمات المواساة من زملائي، كنت أستمع لنبضات قلبي التي تدعو الله جاهدة أن يخرجه مما هو فيه، وغلبني البكاء فوضعت يدي لأخفي وجهي الذي لم يتعود أحد أن يراه مغتسلًا بالدموع، فجأة سمعت همهمات فزعة وشهقة مكتومة، ففتحت عيني لأجد أحد الجراحين يصعق حبيبي بجهاز الصدمات الكهربائية مرة بعد مرة، إلى أن حرّك رأسه في يأس ووضع الجهاز جانبًا.مادت بي الأرض، رفض عقلي التصديق أنني فقدت حبيبي وزوجي وكل ما أمتلك في لحظة واحدة، خارت قواي وخانتني قوة أعصابي وجعلني ثقل المصاب أركع على الأرض بدون أن أنطق، جسدي كله يرتجف والضوء من حولي ينحسر عن عيني شيئًا فشيئًا إلى أن أظلم العالم من حولي، وظللت تحت تأثير الصدمة أياما إلى أن أفقت أخيرا وتيقنت من أن ما حدث قد حدث فعلا، وأنني لا أمر بكابوس سيغادرني بمجرد أن أصحو من نومي، وبدأت أشعر بما حدث وأفهم تماما أن طارق زوجي وحب حياتي قد تخلى عن عالمي للمرة الأولى، وهجرني إلى الأبد، كيف لي أن أتصور أنني لن أراه ثانية؟ لن أهاتفه؟ لن

أحادثه؟ لن أغار عليه لدرجة الجنون حتى من نفسي؟ كيف سأربي أطفالي بدون دعمه ومساندته؟ وتذكرت أطفالي أين يا ترى ذهبوا؟ ومن يعتني بهم وقد تغلبت عليّ الصدمة فلم أخرج من المستشفى منذ حدث ما حدث.

ذلك الصباح أقنعتني بالتعاطف معك براءةُ ملامحك الذابلة ولحيتك الطويلة وعيناك اللتان تخلت عنهما تلك النظرة الخطيرة، وجثم بها حزن صبغها بلونه الأسود، ظننتك فقدت يومها روحك.

كنت أشعر بأن هناك شيئا ما أسوأ مما حدث، محاولاتك لإثنائي عن الذهاب إلى أطفالي متعللا بتدهور صحتي جعلتني أرتاب في الأمر، شعرت بحدس الأم أن هنالك شيئا ما يخفيه الجميع عني، توسلت إليك أن تأخذني إليهم، ولكنك تعللت بأنك تخشى عليّ لأنني لم أتعاف بعد، وجهك الذي تغيرت كل ملامحه نمّ لي عن شيء أكبر، وظللت أستدرجك إلى أن قلت وقد كسا القهر الحزن بعينيك: لم يعد هناك سوى نهيل، تُوفي محمد بمجرد وصوله للمستشفى ونهيل بين يدي الله تنتظر معجزة.

شلتني الصدمة فلم تشفع لك كل نفثات المواساة التي نطقت بها، لقد كتبت نهاية كل شيء جميل عشت من أجله، إن ما

كان يصبرني قليلا على ما حدث لطارق هو وجود محمد ونهيل في حياتي، يا اللـــــــــه كيف لي أن أتحمل فقد ذلك الفـــتى محمدًا؟ والذي كان جزءًا عزيزًا من طارق يحمل كل صـــفاته. سقطت دموعي وأنا أتذكره، فمنذ تزوجت طـــارق وهـــو في كفالتي، كنت له أمًا وكان لي نعم الولد، كيف أنسى أنه أول من أسمعني كلمة "ماما"، أول من فجّر ينابيع حناني وإحساسي كأم، كنت أتقمص معه دور أمي التي كانت تفضل أشـــقاءنا الذكور حتى إن طارق أحيانًا ما كان يطالبني بتحري الإنصاف حتى لا تغار منه نهيل.

ذهبت -أجرجر بقايا حياة ظلت متشبثة بجـــسدي- لأرى ابنتي في غرفة العناية الفائقة، كنت أتـــشبث بـــشعاع الأمـــل الضئيل، لعل الله يرحمني بمنحها طول الأجـــل، كانـــت كـــل علاقتها بالحياة تستمدها من خلال أجهزة باردة تخلو من دفء الروح، اقتربت منها لأضمها إلى صدري وأخذت أناديها.... نهيل......ابنتي.....طفلتي........صغيرتي..لعلها ترد ولو عن طريق الوهم.

أمسك بيدها الباردة فتسري القشعريرة في بدني، وينـــتفض قلبي في ذعر خشية فقدانها، فقد أخبرني الطبيب أنهـــا مـــسألة وقت فقط، فخلايا مخها الصغير قد تمردت على الحياة نتيجـــة قوة الحادث.

كانت أبشع لحظات حياتي وأنا أنتظر بجوار طفلتي، أراقب صدرها يعلو ويهبط، وأشعر بالهلع كلما هبط خوفا من أن يكون هذا هو النفس الأخير.

قضيت أيامي أبكي وأبتهل إلى الله بالرغم من يقيني بقرب الفاجعة، لكن عزائي أن يصبرني ربي، ويجعلني أتحمل بشاعة ما سيحدث في هدوء ورضا.

في صباح أحد الأيام، زارني شقيقك الأكبر "عاصم"، في الحقيقة كان دائم الزيارة لنا، كان يجلس بجوار "نهيل" يقبّلها ويمسك بيديها، يقرأ لها القرآن ويتحدث معي ليصبرني بأسلوب مهذب متحضر.

ذلك اليوم كان منقبض الملامح، طلب مني أن يحادثني في موضوع شائك وخطير، وبعيدا عن كل تصوراتي، طلب مني أن أفكر في منح قلب صغيرتي في حالة وفاتها إلى "سما" ابنتك، لأن المسكينة تحتضر هي الأخرى بسبب عيب خلقي في القلب، وتنتظر -منذ شهور طويلة- معجزة تمنح لها الحياة.

جن جنوني، فجريت من أمامه كمن صعقها البرق، ونزلت إلى حديقة المستشفى أبكي، وأتضرع إلى الله أن يخيب ظنون أولئك البشر الذين تكلّست مشاعرهم، لدرجة أن يطلب مني أحدهم أن يقتلع قلب صغيرتي لكي يمنحه لابنة شقيقه الآخر.

وجدت من يربت كتفي في رفق، فجففت دموعي ورفعت نظري، فوجدته شخصا يبدو أنــه إمــام المــسجد الملحــق بالمستشفى، أسمر نحيف تعدى عمره الخمسين، خاطبني برفــق قائلًا: البكاء يا ابنتي لا يحل مشكلة، لا يعيد غائبا ولا يحي ميتا ولا يُرجع حقا ضائعا.

زاد بكائي ولم أستطع الرد، فقال في صوت هــادئ أراح قلبي: لا تخافي يا بنيتي.. ولا تقنطي من رحمة الله، فقط توكلي عليه...الجئي إليه.. فهناك فراغ في القلب لا يملؤه إلا الله... لا تعلقي قلبك ببشر.. اجعلي تعلقك بالله ولن تتــذوقي طعــم الندم... لديك مشكلة استخيري مولاك.....

لا أدري لم شعرت بقلبي وقد هدأ وتباطأت نبضاته وظللت أنظر إليه، إلى أن غاب عن ناظري، وبدون أن أدري وجــدت نفسي أفكر جديًا في المسألة، ووجدت أن لدى عاصم وجهــة نظر ربما تكون مقنعة، إن لدينا طفلتين على وشك الموت، إذا كان من الممكن إنقاذ إحداهما.. فلم لا ننقذها؟ ولكنني تخيلت طفلتي المسكينة وهي ميتة، والأطباء ينتزعون قلبها الصغير بــلا رحمة، كيف تدفن صغيرتي بلا قلب؟ ألم يكتفوا بمــا حــدث لذلك الملاك الصغير النائم؟ ولكن أليست التضحية أسمى شــيم الملائكة؟ لو حدث ما حدث في أثناء حياة طارق لما تردد لحظة واحدة.

ورافقني إلى دار الإفتاء وبصوت مرتعش ودموع غزيرة سألت، فأجابني أحد العلماء أن منح العضو البشري الحيوي كالقلب مثلا لمريض يُحتضر، صدقة جارية لا يجاريها شيء في ثوابها، لأنها تمنح الحياة لإنسان، والحياة حق مقدس لا يماثله حق.

لم أكن أتمنى أن يحدث ذلك، فمازلت آمل أن يحقق لي الله معجزتي، فكلمة واحدة همس بها "نهيل" أو حركة من يدها، ستضخ الدم في شراييني مرة ثانية، كلما طالعت وجهها الذي تشوّه، وجسدها النحيل المسجى أمامي، أدرك أنه حلم مستحيل، حلم يحتاج إلى معجزة وزمن المعجزات ولى من غير رجعة، فرافقتك إلى لندن مع طفلتي حتى تنتزع منها حياة طفلتك في الوقت المناسب.

اعتذرت له عن انسحابي بتلك الطريقة، فأخبرني أنه سيحترم قراري إن رفضت التضحية بقلب ابنتي وأنه سيلتمس لي ألف عذر إن فعلت، وأن الفكرة ستدفن في مهدها ولن يعلم بها أحد.

نعومة كلماته دفعتني إلى أن أعده أنني سأمنح قلب "نهيل" لسما بعد أن أسأل أحد علماء الدين عن مشروعية منح الأعضاء البشرية، فلقد كنا نسمع أن جسد الإنسان أمانة لا

يجب التفريط بعضو منها، لأنها ملك لله سبحانه وتعالى وليست ملكا لأحد.

إحدى الليالي كنت جالسة بجوار طفلتي، عندما شعرت بتوتر غريب، فقد اضطربت أنفاسها، وبدت كل المؤشرات تشير إلى أنها تستعد لمغادرة حياتي هي الأخرى، وخلال دقيقة واحدة وجدت كل الأطباء المناوبين حولي، كنت أعلم أنها تموت، ووجدت نفسي فجأة أفكر في "سما " عندما تتعرض لنفس الموقف.

رأيتك تدخل مسرعًا وتضمني إلى صدرك فطلبت منك - وأنا أرتجف- أن تدعو الله أن يخفف عني ويمنحني الصبر.

كنت أظن أن دموع الرجل أسطورة، فلم يسبق لي أن رأيت رجلا يبكي أو حتى تدمع عيناه، ولكنك حطمت تلك الأسطورة! فقد رأيتك وقد أسندت رأسك إلى فراش نهيل وانخرطت في بكاء أوجع كبدي، و لم أطلب منك الكف عن البكاء، فقد بدا لي أن الضغط العصبي الذي تعرضت له خلال تلك الفترة قد طفا على السطح، لقد كنت أحسدك حقيقة لبكائك فستستريح حتما بعده، فليس هناك ما يفيد مثل البكاء في حالة الضغط النفسي الشديد.

في صباح اليوم التالي، فاضت روح نهيل وما إن أعلن الطبيب وفاتها، حتى خانتني ساقاي وجلست على الأرض أراقبهم وهم يتحركون في سرعة ليجهزوا جثتها لدخول غرفة العمليات، كنت أرتجف وتصطك أسناني ببعضها بعضا، وأقاوم قشعريرة باردة تعصف بجسدي حتى حملت إلى غرفة أخرى وحقنني الطبيب بالمخدر، لم أكن نائمة تماما، كنت أنتفض عندما أتذكر أنهم سيشقون صدرها الصغير عن قلبها ويقتلعونه بكل قسوة، وأخذت أئن وأنا أذكر ماضي كله يتجسد أمام عيني، كم كنت أتجاهل ذلك الماضي وأتناسى أني مررت به!

دفنت طفلتي بجوار والدها وشقيقها، وعندما صدمت عيني شواهد قبورهم، شعرت بغصة وانتابني شعور قوي بالحسرة وغلبني البكاء فركعت على الأرض أمامهم وبكيت كما لم أبكِ من قبل، وكنت أنت برفقتي -بعد أن استقرّت حالة طفلتك- ووالدتك التي ضمتني إلى صدرها وهي تبكي ابنها الأثير.

ما إن دخلت بيتي حتى شعرت بالانقباض، كانت أنفاس الموت تحيط بي، كانت كما تركتها تماما قبل الحادث، ولكنني شعرت كأن حوائطها قد صبغت بالوجع الذي عكس لونه على المكان وحشة وغربة.

ارتجف قلبي وكدت أترك المكان وأذهب، إلا أن صورة طارق الكبيرة التي تتوسّط الصالة طمأنتني وأشعرتني كأنه معي، دخلت غرفة نومي وأنا أتوقع أن أجده وقد خرج من الحمام ووضع الفوطة على شعره الذي يقطر عطرًا، ولكنني لم أجده، كنت أعلم أنه مات ولكن شيئا غريبا يجعلني أتوقع دخوله عليّ بين لحظة وأخرى!

ارتميت في فراشي البارد، أحاول أن أغشى مدن النوم إلا أنني بقيت خارج الأسوار أدق الأبواب في رجاء أن يأذن لي أحدهم، فأنعم بالقليل من الراحة، جلست أبكي لا أجد من يخفف عني، وأيقنت أنني انتهيت عندما انتزعت أسرتي من بين ضلوعي وفقدت حياتي بهجتها، أمسكت بعلبة السجائر الخاصة بطارق وأشعلت واحدة، فمرّ أمام عيني طيف ماض كنت قد حذفته من حياتي، ماض تمنيت ألا يكون قد حدث لي، أخذ يلح علي لدرجة أنني ولأول مرة منذ زمن طويل أستسلم لإرادته في مغازلة ذاكرتي.

أشعلت سيجارة أخرى وأنا أتخيل كيف ستقابلني أمي، هل سأرتمي بين أحضانها فتطبق بذراعيها عليّ، أم ستدفعني عن صدرها وتطلب مني عدم الاقتراب؟ وماذا سيكون رد فعل شقيقي "السيد"؟

كان القلق يقتات من قلبي ولا تستطيع الحاسة السادسة بداخلي التقاط ردة فعلهم المستقبلية، فكل علاقتي بهم انحصرت في مكالمات متقطعة كانت تجود عليّ بها عائشة، وعدد من الزيارات لشقيقي الأروع محمد في المدينة الجامعية.

كنت أترقب رؤية الشعاع الأول للنهار، حتى أشعر أنني اقتربت من رؤية بيتنا الريفي الصغير الذي اشتقت لغرفاته، واشتقت لرائحة أمي، إلى شقيقي الأكبر وإلى رائحة الزرع صباحًا وزقزقة العصافير.

سيطر عليّ شعور بالذنب لتمردي عليهم، لقد كنت مخطئة عندما ظننت أنه يمكن لفتاة ريفية بسيطة أن تترك عالمها التي ترتع بجنباته، لتذهب إلى عالم لا تنتمي له، كسمكة هجرت بحرها لتستوطن حوضًا لأسماك الزينة، وقتها شعرت بأنني على أتم استعداد لأبادل بمستواي الاجتماعي الرفيع لحظةً واحدةً تمد فيها أمي يدها إليّ لتربت ذراعي.

كلما اقتربت عجلات السيارة من قريتنا، ازداد اندفاع الدماء في عروقي وشعرت بقلبي يغادر ضلوعي ويستوطن قدمي، ولكنني تمالكت نفسي عندما لاح بيتنا من بعيد.

لم يكن نفس البيت الذي تركته رغما عني منذ عدة سنوات، تزاحمت البيوت من حوله بعد أن كان شبه وحيد، ولكنه مازال منتصبًا بذات الكبرياء القديم بالرغم من بساطته.

كنت أتمنى أن تمسك بيدي بدلا من التخلي عني لصالح مشاهدة ماكينة ري تضخ الماء لشرايين الأرض، كدت أطلب منك أن تبقى بجواري تشعرني بالقوة، لولا أن احترمت اختيارك.

طرقت الباب ففتحت لي طفلة صغيرة، ملامحها مزيج من ملامحي وملامح أمي، سألتني كمن أكون فتجاهلت طلبها وسألتها أن تحضر لي جدّها، غيبتها جدران غرفة بعيدة وغيب قلبي سيل دموع فتت كل صخوره وجرف صبره، فصحت "عائشة".

خرجت عائشة وهي تحاول استكشاف ذلك الشبح المتبجح، وما إن رأتني حتى صرخت باسمي واحتضنتني وانضم إليها محمد.

وشعرت للمرة الأولى -منذ دهر- كيف يشعر المرء بالأمان، واقتادني محمد إلى غرفة أمي، كانت جالسة تصلي، وما إن أنهت طقوس تعبدها حتى قال محمد: حرمًا يا أمه.

نظرت إليه بوجه باسم وهي تقول:- جمعًا إن شا.....

وثبتت عيناها عليّ لثوانٍ وأكملت في دهشة: مين دي يا محمد؟

ركعت أمامها وقد أذللت كل دموعي وقلت وقد اختلط البكاء بالصراخ معا بصوتي: مش عرفاني يا أمه؟ أنا نجوى بتك.

نكست رأسها وكم وددت أن أدفع حياتي كلها حتى لا أراها تفعل ذلك أمامي، ملأت الدموع مآقيها فانكفأت على يدها أقبلها، وأخذت أقبل رأسها وقدميها والأرض التي تطأها بقدميها، فطوقتني بذراعيها واحتضنتني، كم اكتشفت لحظتها أن حياتي كلها لا تساوي تلك اللحظة، وكم شعرت أن كل ما مررت به من آلام قد انتهى عندما دفنت رأسي بصدرها وجلست أبكي.

وغلبني سلطان النوم، فظللت نائمة بين جوانحها إلى أن أيقظني صوتٌ بعيد، صوت يشبه تأثيره رجفة الماس الكهربائي، انتفضت عندما سمعته يسأل أمي: "بتعمل إيه هنا يا أمه"؟

احتضنتني أمي بشدة وقالت في خفوت: "جاية تشوفني إيه هتحرم عليّ ضنايا يا سيد"؟

نظر إليّ نظرة فقدت معانيها وقال بقوة: "مش مننا يا أمه..إحنا دفناها وخدنا العزا والميت ما بيرجعش تاني".

قمت من مكاني وناديته: "سيد"... قاطعني ونظر إليّ كأنه ينظر لشبح قائلًا: "الله يرحمك يا أختي ويسامحك".

رد محمد: سيد يا أخويا إنت غلطت غلطة زمان ما تكررهاش النهارده تاني.

أجابه السيد بصفعة أطاحت بكل آمالي في عودة الود بيننا، ثم صاح بعائشة لكي تحضر وجبة فخمة لضيفة والدها وتركنا وذهب.

لم أستطع تناول الطعام، بالرغم من احتياجي للقمة من يد أمي، وأتيتك لأجدك سارحا في مشهد الماء المتدفق كوجعي، وما إن شعرت بي، حتى نظرت إليّ في فضول وقرأت في صفحة دموعي كل ما خفي عليك.

لم توفق في محاولات الترويح عني، كنت أعلم أني انتهيت بالنسبة إليهم، ولكن لقاء أمي جدد في قلبي الحنين إليهم مرة ثانية، رؤية وجهها لدي كان أفضل ما حدث لي منذ سنوات، ذلك الوجه المتعب التي رسم عليه الدهر أصدق لوحاته..أمي..كم كنت أفتقد تلك النظرة الحنون التي لم أرها في حياتي سوى مرات قلائل..وتلك الرائحة التي تجذب المشاعر من أعمق أعماقها، وذلك التواضع المتكبر الذي يُحيّر من أمامه، اعتقدت أني سأطفئ لهيب حرماني عندما أرتمي بين ذراعيها، ولكنني كنت مخطئة، فقد استبد بي الشوق أكثر!

يوم عدت إلى عملي في المستشفى، سيطر عليّ شعور غريب لم يسبق لحواسي تذوقه..شعور بالخوف عندما دخلت

قسم الجراحة الذي أعمل به، فوجئت بقدمي تغوصان تحت موجات متتابعة من الدماء، غطت الدماء كل شيء من حولي، توقفت مكاني وأنا أتطلع إلى الحوائط النازفة والأرض الجريحة، وغمرني شعور بالغثيان وغمرتني الأمواج فظللت أصارع الدماء ولا أحد يسمع استغاثتي فينقذني.

بعد لأي، وجدت من يناديني باسمي، كنت أعرف ذلك الصوت جيدًا، فقد كان لأحد الأطباء الذين يعملون معي، شعرت بوخزة إبرة في ذراعي بعدها بدأت في استجلاء ما حولي، فقد أخبرني أحدهم أنني تعرضت لنوبة عصبية شديدة بمجرد مروري على غرفة العمليات، ولكنني لم أصدقه، فقد رأيت الدماء رأي العين، وقتلتني نظرات الشفقة بعيونهم فشعرت أنني أرغب في مغادرة ذلك المكان الموجع، في الحقيقة تمنيت أن أغادر العالم كله.

تظاهرت بالتماسك وتركت المستشفى، ولا أدري كيف قدت سيارتي هذه المسافة، طرقت باب البيت فلم أقو على الإمساك بمفتاح الباب، وفتحت أنتَ لي وقبل أن أجيب سؤالك عما أصابني، ارتميت بين ذراعيك فمنعت جسدي السقوط، ولكنك لم تستطع السيطرة على مشاعري التي انهارت لتغوص بأعمق أعماق الوجع.

تخلت عيناي عن صمودهما فبكيت، ووجدت العالم يترنح من حولي فلم أستطع التفريق بين ما أريد وما أرفض، لم أميّز ما يقال من حولي ولا شعرت بمحاولاتك للسيطرة عليّ، شعرت فقط بألم بصدري ومحيط من الظلمة المرعبة التي أتخبط بها كغريق لم يختبر من قبل فعل السباحة.

وما إن وضعتني بفراشي وتركتني، حتى امتدت يدي لعلبة المنوم فابتلعها يأسي، فكادت تودي بحياتي و لم يجد الطبيب مفرا سوى باحتجازي بمستشفى الأمراض النفسية التي يمتلكها لعدة أسابيع حتى أتمكن من التخلص من ثوب اليأس الذي غلّف قلبي.

وبدأت في التعافي بفضل وقفة أهلك معي وتعاطفهم، وبفضل وقفتك الرجولية (التي لم أتوقعها يوما) معي، حاولت إعادتي إلى عملي وكدت أعود لولا أسراب الرعب التي اجتاحت خيالي وتسببت بذعري لتخيل يدي تقبض على المبضع وكأنها تمسك بسكين الطعام، كنت أتصور أن العمل هو الترس الأكبر الذي تدور حوله كل أحداث حياتي، ولكنني بددت هذا الاعتقاد عندما كتبت طلب الاستقالة وأرسلته للمستشفى ضاربة عرض الحائط بأعوام طويلة من الجهد والدراسة، فقد جمعت كل تلك السنوات ومعها دراسة الطب

وشهادة الماجستير وقذفت بالجميع في بحار ضياعي، لأعيش بلا زوج ولا مهنة ولا حتى أمل في إنعاش حياة أدري مسبقًا أنها انتهت.

قتلني الفراغ خاصة بعدما قررت والدة طارق مرافقة شهيرة إلى أمريكا حيث تعمل هي وزوجها. ولكنك كعادتك دائما، لم تكن لتتركني طريدة لليأس، فقد خشيت عليّ الانتحار، لذا عملتَ جاهدًا أن تضخ البِشر في شرايين حياتي، وأتيتني عصر ذلك اليوم وقد اعتلت وجهك قمم الانتصار وقلت: نجسوى.. لدي خبر لك لكن دعيني أسالك أولا عن مدى قوة أعصابك.

قلت: فولاذية أعصابي.. لذا لا تدعني أنتظر.

قلت وقد اتسعت ابتسامتك قائلا: - منحة لدراسة الأدب الإنجليزي بواحدة من أعرق جامعات الـ UK.

تمردت نبضات قلبي ولكنني مثلت عدم الحماس قائلة: لمن؟

ليست لي بالطبع، فعملي لا يترك لي دقيقة واحدة لأتنفس، هذه المنحة لك.

- ولكنني لا أريد السفر.

انقبض قلبي –وقتها- ولم أتبين سبب ذلك الانقباض، وتدريجيًا بدأ في الوضوح أن سبب خوفي كان..أحمد.. كان أنت.

كنتَ تشبه طارق في الطباع، إلا أن طارق كان واضــحًا قويًا لا يخشى شيئا، عصبي المزاج ولكن حنانه يكفل له الدخول من أوسع أبواب الغفران، أما أنت فكنت هادئًا غامضًا كعطور الشرق لا يعلم أحد ما تبطن، وقد خشيت أن يجــذبني ذلــك الغموض، خاصة أنك اهتممت بي اهتماما ملأ عيني زوجتــك بالتساؤلات.

عندما وصلت لتلك النقطة، انتفضت من مكاني وأنا أعتذر عن قبولي تلك المنحة، وأخبرهم أن لدي سببا قويا يمنعني مـــن السفر، حاول الجميع إقناعي ولكنني صمدت أمامهم، ولكـــن جاءت الكلمة الأخيرة لـــ"هانيا" زوجتك عندما طالبتني في رقة أن أرافقها، ليس من أجلها ولا إكرامًا لك إنما لأســاعدها في الاهتمام بـــ"سما " التي تحتاج رعاية مكثفة بعد الجراحة.

سافرت بعد عدة أسابيع بصحبتهم، وبدأت في إعداد نفسي للدراسة، كان وضعًا محرجا بالنسبة لي بالرغم مـــن محـــاولات "هانيا" المستميتة لإسعادي، كنت أذهب إلى الجامعة في الصباح ولا أعود سوى عندما يصبغ الليل العالم بلونه المميز، وعنــدما أعود، أدخل غرفتي وأغلق الباب خوفًا من تسرب فيروس أحمد إلى قلبي، فلا أستطيع تحرير قلبي من بين أنيابه، خاصة أنـــه لم يكن يدخر وسعًا لذبحي بتطويق خــصر "هانيـــا" أو تقبيلـــها

أمامي، فيثور بداخلي طوفان الحنين لطارق فأذهب إلى غـــرفتي لأبكي ذكرى الأيام الخوالي.

والتقيت بـــ"خالد" مصادفة في مكتبة الجامعة، كنت جالسة أكتب شيئًا ما وأدندن بلحن خافت تبيّنته أذنه الخبيرة، فاقترب مني قائلًا: كنت أشعر أن تلك الملامح الطفولية وذلك الـــشعر الثائر عربي الهوى.

شعرت بنسمة شرقية تجتاح هجير غربتي وبأمان سرعان ما استوطن صدري، فابتسمت وأنا أتأمل تلك الـــسمرة الفاتنـــة والملامح التي تصرخ معلنة للجميع أنه عربي، وضاعت كلماتي أمام تلك الابتسامة الساحرة التي تسكن متأملها غابات الوهم.

مد يده مصافحًا، فتمرّدت عليّ يدي وعانقت يده، وكأنها المرة الأولى التي تسكن مدن الاطمئنان فقال: أنا خالـــد مـــن السعودية أدرس دكتوراه بالطب.

لم أردّ، وظللت أنظر إلى عينيه السوداوين وأربط بينها وبين لون شعره في انبهار فأكمل مبتسمًا:- أتمنى أن تمنحيني شـــرف معرفتك.

وزادت بلاهتي وأنا أنظر إليه بدون نطق فاتسعت ابتسامته وقال: سيدتي هل هناك خطب ما؟

كدت أقول له: "نعم..عيناك" لولا أن تمالكت نفسي أخيرًا وقلت "اسمي نجوى..مصرية..كنت طبيبة ولكنني فضلت دراسة الأدب الانجليزي".

وانفتح أمامنا باب من النقاش لم ينتهِ سوى عند باب البيت، عندما أوصلني بسيارته وأعطاني رقم هاتفه في حالة احتياجي لشيء.

كان "خالد" حدثا جديدا جدّد حياتي التي تخلت عن نضارتها، وسعدت بإحساسي به، فقد كان المصل الذي استعنت به للقضاء على فيروس "أحمد".

لم يكن إحساسي به حبًا بقدر ما كان انبهارا ورغبة في ممارسة سياسة "التقية" ضد هجماتك الناعمة، كنت صبورًا تتحمل أي شيء في سبيل الوصول لغايتك لذا حصنت نفسي بخالد.

كان شاعرًا يحيط به جسد طبيب وفنانًا تتلبسه روح رجل شرقي النخوة غربي التصرفات.

كان متزوجًا ولديه من الأطفال ثلاثة، لذا لم أخطط أبدًا لامتلاكه، أردته فقط نهرا جاريا أغتسل به فيزيل أوجاعي.

كانت التساؤلات تملأ عينيك عن ذلك الرجل شديد الوسامة والأناقة والذي يرافقني بصورة أضحت دائمة، حتى

إنني تخليت عنك تمامًا، لم أكن أرغب في راحتك، كنت أتصرف بكل بساطة عندما يدق هاتفي وأنا جالسة معكم، كنت أرد عليه قائلة "هلا وعلى كيفك" وأترك المكان وأذهب، فتشب النيران بقلبك ويفيض اللهيب ليلوّن وجهك وعينيك.

جذبني "خالد" لعالم الفن وعرفني على كثير من الشعراء العرب الذين تزدان بهم معظم الدول الأوروبية والذين يترددون على مانشستر بصورة دائمة.

أصبحت أهتم بالشعر النبطي وأبحث عن معانيه، وفاجأتني قدرتي على تقليد بعض الشعراء في بناء أبياتهم الشعرية، كنت أعيش في لذة دائمة وتصورت أنني بدأت في التعافي من كل أوجاع الماضي.

كان يعاملني كقصيدة باهرة المعاني، ابتكرتها مخيلته، وكان يبدع في اختيار المعاني التي يصف بها تلك القصيدة، قوة كلماته كانت تتعانق دائمًا مع قوة المعاني التي لم أعتد سماعها، فكنت أستمع إليه باهتمام، وكنت قد ظننت أنني فقدت القدرة على الاندهاش.

كانت المرة الأولى التي يطلب مني الخروج معه لتناول العشاء، فترددت ألف مرة، وشعرت بأمواج الحيرة تغالبني، ولكنني حسمت أمري بتلبية دعوته، فلم أسهر خارج البيت

منذ سنوات، أخبرت "هانيا" حتى لا تنتظرني كعادتها وابتسمت في رقة قائلة "ليتك تبدلين لون ملابسك السوداء، الحداد لم يعد يليق بتلك الملامح شديدة الجاذبية" فقد كانت تتابع ما يحـــدث في صمت وكنت أحب صمتها العاصف.

دخلت غرفتي فوجدت صورة طارق تتربع في جلال فوق فراشي الخالي، ينظر إلى عيني تلك النظرة العميقة التي لم تـــتغير حتى بموته، مازال لها نفس التأثير الذي يفـــوق تـــأثير المـــاس الكهربي، كدت أغير رأيي لولا أن حانـــت مـــني التفاتـــة إلى المرآة،ـــ فلاحت لي امرأة لم أعد أعرفها، فقد فقدت الصلة بها منذ موته، امرأة يدفعني طموحها وتطلعاتها إلى أبعد ســـراديب الجنون، لم تكن تلك الملامح الشاحبة ملامحي، أين ذلك الوجه الندي الذي كنت أفخر بحمله؟ وأخذت أسائل نفسي ما الذي جعلني أنكر تلك الملامح؟ وإلى متى سأظل حبيسة الأسود الذي طبع لونه على تصرفاتي وحياتي؟

كان الجميع يطالبونني بأن أعيش حياتي، وكنت أتـــساءل لماذا يعتقد الجميع أنني لا أعيشها بالفعل؟ هناك مؤشرات كثيرة تدل على حياتي، فمازلت أتنفس، أتناول ثلاث وجبات يوميا كمعظم البشر، وفي المساء أحتضن وسادتي وأوهم نفسي أنـــني غارقة في ورود الأحلام.

حملت الصورة واحتضنتها كأنني أحتضنه، وبعد أن أفقت، وضعتها بخزانة ملابسي وأغلقت عليها بإحكام، خوفًا من بعث صاحبها فجأة، فيعلم بما أنوي فعله، فقد كان على الرغم من كل شيء ما زال يحمل تلك الهيبة وذلك الجلال.

دخلت لأغتسل ولأنقي جسدي من كل رواسب السنوات الفائتة، أردت ليلتها أن أُولد من جديد، أن أفتح عينيّ للمرة الأولى على الدنيا التي أستحقها، والتي كلما قبضت عليها تسربت من بين أصابعي كزئبق متمرد.

وقفت أمام باب خزانتي عارية، وارتديت ما بدا لي أنه الأجمل، وصففت شعري، وللمرة الأولى منذ سنوات تركته ثائرًا كمحيط هادر تتلاطم أمواجه فتشعر من يراقبه بالخطر.

لم ألوّن ملامحي بصبغة أخرى، فمنذ وفاة طارق ولم يمس شفتي إصبع الـ"روج" وكأنني حرمت عليهما أن يلمسهما غيره.

وتناهى إلى مسامعي صوت سيارته، فتقافزت نبضاتي، ولكنني أحكمت سيطرتي عليها واندفعت خارجة، فاصطدمت بـ"هانيا" التي صدرت عنها ضحكة وتمنّت لي ليلة سعيدة.

وجدته جالسًا خلف مقود السيارة يستمع لموسيقى كلاسيكية شديدة النعومة، وما إن جلست بمقعدي بالقرب

منه، حتى تطلع إلى وجهي ساهمًا، ولم يردّ التحية فناديت بهمس: خالد؟ خالد؟؟

رد عليّ بهمس أكثر متقمصًا روح شاعر شديد الرومانسية:

لبيه ياللي وحدك إن قلت لبيه يذبحني لبيهلك ويذبحني الصوت

وإن طاح قلبي ميت(ن) فيك خليه يا حي قلب(ن) طاح ويا حيه الموت

ما قلت أحبك لاجل وقتي أسليه لا والذي نجا نبيه من الحوت

والحب لو هو سر وأقدر أخبيه ما قلت أحبك حتى وشفاهي سكوت

لي ناظر(ن) ما غير شخصك يمليه كأنك دواي وشوفتك طب منعوت

وإن ضاق بالي أذكر اسمك وأغنيه وأتخيلك عل وعسى طيفك يفوت

أهواك وهمي كيف قلبك أهنيه من كثر ما اسمك بها لقلب منحوت

ياللي البحر لو جه ببالك تحليه مريت صوبه وامتلا سكر وتوت

لبيه ياللي لو طلبني ألبيه للعاصمة حافي ولو دربه خبوت

لين أندهك (نجوى) وتردين لبيه أطيح من طولي ويـــذبحني الصوت

وأنهى القصيدة بعدة كلمات متتابعة تحمـــل كلـــها لفظـــة "أحبك..أحبك..أحبك"

تجمدت كل كلماتي وكل دمائي، وفقدت سطوة السيطرة الكاملة على جسدي، فارتجف رغما عني ونم عن رعب اجتاح حواسي، ظللت متكلّسة لعدة دقائق إلى أن ناداني "نجوى"

فرددت بدون أن أدري:

"لبيه"!

امتدت ذراعه لتطوقني وتقربني منه في رقة نسيتها وكطفلـــة يتيمة -عرفت توا أن والدها قد بعـــث فقـــط ليحتـــضنها_ أغمضت عيني ووضعت رأسي على صدره المعطر بحنان العـــالم كله، ورأيت روحي تتربع على أرقى عروش قلبه عندما أمسك بخصلة من شعري وقبلها في براءة عاصفة فتشبثت به خشية أن يتخلى عني.

كانت فقط لحظات اغتصبتها من عقرب الثواني، ولكنـــها بالنسبة لي كانت حياة، ندمت على وضع نهاية لهـــا، عنـــدما

طلبت منه التحرك لوجهتنا، و لم أنس يوما تلك الليلـــة الـــتي غطت بها رائحة الحنان رائحة العود الذي بخر به السيارة تمهيدا لاستقبالي.

جلس في مقابلتي على الطاولة، وحولنا اجتمع عـــدد مـــن زملائنا بالجامعة والذي طالبهم بالحضور بدون علمي، فشعرت بقليل من الراحة لوجودهم، فوجودهم شكّل لي مظلة رائعـــة أتقي بها مزن الحب الثائر.

كان حديثهم يدور حول مخـــاض الـــشرق، الانتخابـــات الأمريكية، الأزمة الاقتصادية وغيرها من الموضوعات التي تحيط قلبي بالضجر، ورسمت ملامحي لوحة مترعجة، لاحظها "خالد " على الفور فأمسك بقائمة الطعام وطلب من الجميـــع اختيـــار طعامهم.

عندها شعرت بسطوتي ونفوذي وللمرة الأولى شعرت أنني اقتربت من امتلاك قلب رجل،

ففي علاقتي بطارق لم أشعر بذلك الزخم وتلك الـــدفقات الشعورية وفيض الأحاسيس الذي يترجم كل التـــصرفات إلى كلمة "أحبك".

اعتراني شعور غريب، عندما أمسك "خالد" بـــالميكروفون ونطق اسمي فتوجهت كل الأنظار إلى الطاولة الـــتي أجلـــس عليها، وقالب الجاتوه الذي توقّف أمامي، فتذكرت بعد طول

معاناة أن اليوم "عيد مولدي" ولم يسبق لي أن احتفلت به، فقد كنت أعتبره اليوم الذي تخلّت فيه أمي عن حمايتي وقذفت بي إلى عالم لا يفعل شيئا سوى إيلامي.

وزاد اندهاشي عندما أهدى إليّ أغنية خليجية رقص عليها.

كانت المرة الأولى التي أرى بها رجلًا يرقص، فجلست أراقبه مبهورة، فقد كنت أعتقد أن الرقص يقلل من وقار الرجل وهيبته، ولكنني فقدت إيماني بتلك النظرية عندما قام يحرك جسده على أنغام الموسيقى القوية التأثير، فتتمايل الدنيا بحركاته، وتمنيت لو امتلكت السلطة فأجعله يفعل ذلك أمامي طوال حياتي.

كان طريق العودة طويلًا، وكان الجو ممطرًا مخيفًا، يبعث بداخلي مشاعر طفولية وانكمشت بمكاني خوفًا من كلمة أو قصيدة تحول زمهرير الجو إلى جحيم، زفرت بقوة عندما توقفت السيارة أمام بيتي فقال برقة: "هل كنت رفيقا سيئا لهذه الدرجة؟"

خجلت من نفسي فقلت: " بالعكس، لم أرد الوصول، تمنيت لو طالت ليلتنا لتمتد العمر كله".

ابتسم قائلًا: خشيت أن أقولها فيبطش جبرك بي، أنا أيضًا لا أود تركك هنا في ذلك البيت البارد أردت لدقائق أن....

ووضع يديه على صدره وضمهما في قوة وأغمض عينيــه فأشعلت قلبي إغماضته وقلت: إلى الغد يا خالد.

استوقفني قائلًا: الغد هو أنتِ. وما الحياة إلا نظرة ســاهمة شردت من عينيكِ.

- خالد؟

- (لبيه)....(.يا لبيه).

- إلى الغد.

تشبث بيدي كطفل تتهرب منه والدته واقترب مني ليطبــع قبلة على رأسي وقال في خدر: سأفتقد كل خلية منــك فــلا تجعليني أنتظر.

- تصبح على خير يا شاعر.

تركت السيارة وما إن فعلت حتى ناداني:ـــ نجوى.

- نعم؟

- أحبــك.

لا أذكر كيف ارتميت بين ذراعيه لأتشبث به كحلم يكــاد يفر من بين جفوني، وتسامحت بتلك الهمسات الــتي ذكــرتني بجهاز الصدمات الكهربائية -الذي يصعق به الأطباء مَن توقف

قلبه- فتوقف قلبي برهة حتى أنعشته تلك القبلة الدافئة وحوّلت الجو المثلج من حولي إلى جحيم.

وانفلتُ من بين ذراعيه راكضة، كـأن وحـوش العـالم تلاحقني إلى أن اصطدمت بك، فوضعت يدي على فمي خشية أن تفطن إلى ما حدث منذ برهة، وارتجفت خلايا دمي وأنـت تتأملني بتمعنٍ وكأنك تترجم سطور ملحمة يونانية، وتجمـد جسدي عندما قلت وقد لمعت الدماء في عينيك: هل أفزعتك؟

قلت وقد اختلطت عندي كل مخارج الحروف: نعم..قليلًا.

- اقبلي اعتذاري، لم أشأ إخافتك، أردت فقط أن أطمـئن على تلك الفرس الجامحة.

- اطمئن، أنا بخير.

- أدري.. وتوقف العالم من حولي عندما مـددت يـدك نحوي حاملًا شيئًا مغلفًا بعناية وقلت:

- لم أنس ذكرى ميلادك، كل عام وأنتِ بحب.

لم أستشف مشاعرك لحظتها، فلم أدر إن كنت قد اطلعت على ذلك الجحيم المتحمد منذ قليل ولكنني شعرت بجحيم آخر كاد يأتي على كل شيء، لذا ودعتك وصعدت إلى غرفتي، وما إن أحكمت إغلاق باب غرفتي، حتى رميت بنفـسي وسـط

فراشي البارد الذي ما رأيته بمثل هذه الروعة من قبل، قبلت يدي التي شهدت منذ قليل ميلاد شيء جديد، شيء لم يمنحني - إلى الآن - سوى السعادة.

تحول الصمت من حولي إلى موسيقى آسرة، وانتابتني حالة من النشوة، وتفاعل جسدي مع تلك الموسيقى فأخذ يتراقص بنعومة إلى أن نضبت الطاقة بداخلي، فارتميت على فراشي مستسلمة لسطوة الأحلام وخدر الوسن.

كنت تعلم أنني أمر بحالة من الحب، ولكنك لم تستطع مواجهتي، كنت كثير الحديث عن طارق أمامي وتراقب ملامحي في اهتمام لتدري إلى أين وصلت في هجراني لذكراه، وكنت لا أدخر جهدًا في تمثيل دور الأرملة التعسة، إلى أن وصلت إلى مرحلة سئمت فيها الكذب، وأصبحت لا أهتم كثيرًا بمشاعرك عندما يدق الهاتف لتفاجأ بخالد يطالبك بمحادثتي، أو عندما أشعر بالمرض وتخبره "هانيا" أنني مريضة فيأتي على الفور وقد نقشت ملامحه كل ملامح الجزع ويظل بجانبي إلى أن أشعر بالاستقرار.

كنت أشعر بوجعك عندما تشاهد شخصًا ما يكاد يحتل أحضاني التي حرم منها شقيقك الأثير، ولكنني كنت أحتاج أن يملأ رجل فراغ حياتي، كنت تعيش حياتك وكنت أطمح إلى تلك الحياة أنا أيضًا.

كنت أقضي يومي الممتع ما بين دراستي ولقاءات دائمة مع "خالد" الذي كان ما إن يتركني حتى يهاتفني، يهجرني دقائق ليعود إليّ دائمًا، لا أتذكر أنه أغضبني يومًا، فعلاقتي به كانت حلما ممتعا مليئا بالمشاعر البريئة والزخم العاطفي الذي ينفثه دائمًا في صورة كلمات.

كان يختلف عنك، كان غيورا يغار كلما اقترب مني شيء يحمل هرمونات الذكورة، ولكنه لا يخبرني، لا يشعرني بالضيق عندما يحادثني أحدهم، ولكن نظرة واحدة لملامحه الوسيمة تفضح كل محاولاته للتجلّد، كان يغار منك وتشتعل النيران بداخله عندما يوصلني لبيتك، ولكنه لا ينطق! إلى أن أخبرني يومًا ما برغبته في أن نترجم علاقتنا إلى زواج.

يومها صرّح لي علانية أنه يتقطع عندما يرانا معًا حتى وإن رافقتنا "هانيا "و"سما".

وشعرت بالغضب، فلم يسبق لي أن شعرت أنه يتحكّم بحياتي، وربما شعرت بغضب أكبر من رغبته في كسر ما بيننا من روابط، شعرت كأنه يطالبني بفسخ كل عقود الود بيني وبين طارق.

وتركته بدون أن أرد -وإن ردت عليه ملامحي المستاءة- وقد شعرت أنه تحت أي مسمى مازال "رجلًا" وكنت أتطلع إليه بصورته الملائكية.

لم أكن أطمح لزواج، فمازالت تربطني بطارق تلك الرابطة المقدسة التي فشلت في فسخها، كنت أعيش كلمات الحب مع "خالد" وفي الليل أتوسد ذراع طارق لأنام، كنت أخشى أن يتحول بعد أن يمتلكني بعقد زواج من رجل إلى "ذكر" وكم أكره الذكور.

لم تنجح محاولاته في الاعتذار، فقد منحني من قبل ثقة عظيمة وبكلمة واحدة سحبها من بين ضلوعي، مرت عدة أيام وهو يحاول الاتصال بي فلا أجيب، يزورني فتخبره "هانيا" أنني نائمة و لم أجد بدًا من السفر "للندن" حتى أستعيد صفاء ذهني قليلًا، فلا أستطيع التفكير تحت ذلك الضغط الذي يمارسه عليّ ليحصل على رخصة تبيح له امتلاكي.

قضيت الليلة الأولى وحيدة بفندق "ماريوت بارك لين"، و لم أنبهر بتلك الفخامة التي تحيط بي من كل جانب، فقد فقدت من زمن طويل كل قدرة على الاندهاش، شعرت فقط بحنين إليه..إلى كلماته القوية التي تتحول فيها روح البداوة إلى رقة تذيب جليد قلبي..إلى مشاعر تدثرني كطفلة تحتاج دائمًا إلى حماية، وزادت غربتي في الصباح وأنا أقطع المسافة البسيطة التي تفصل بين الفندق وحديقة "الهايد بارك"، وزاد حنيني فأمسكت بهاتفي وقبل أن أغلق الخط رد في لهفة "نجوى..أين أنت؟"

قلت: أبحث عن ذاتي، فلم أجد نفسي بداخلك.

- حبيبتي..أقسم لك بـــالله أنـــني لا أســـتطيع مقاومـــة حبك..حبك يذبحني..رحماكِ بقلب يحملك.

أطلقت سراح دموع اعتقلتها طويلا وقلت وقد تحولت إلى طفلة: أشعر بالخوف.

- أعطني فقط العنوان ولن أدع المسافة بين لندن ومانشستر تفصل بيننا، لن أدع شيئا يفرق بيننا، أقسم بربي وربك.

جلست بمدينة الضباب أعد الدقائق التي تفصل بيني وبينـــه، أبكي بسعادة لأنه سيترك كل شيء خلفه ويأتي إليّ، ثم أفكـــر قليلا فيما حدث فأبكي لأنني لم أستطع التغلب علـــى تلـــك المشاعر ففقدت سطوتي أمامه، عندما لجأت إليه كفأر جبـــان وقد كان خوفي من الضعف أمامه هو سبب فراري.

بعد قليل تملك مني الغضب مرة ثانية، وشـــعرت بحـــرارة تسري بصدري وغيظ يتملكني، وشعور بالكراهيـــة يتغلغـــل بخلايا دمي، ولا أدري لمن أتوجه بتلك الكراهية؟ هل أتوجه بها إليك أم إليه أم أصب نار قهري على طارق؟

لم سأكرهك؟ لم سأحقد على طارق، وقد كنت أنا مـــن سعيت إليه وكان قنديلًا لحياتي التي أظلمت بمجرد تخلي الحيـــاة عنه؟ و لم سأكره "خالد" الذي حولني من حطام امرأة إلى سيدة

حياته الأولى، بؤرة اهتماماته ومنتهى أحلامه؟ وجلست أبحث عما يثير بداخلي بواعث الكراهية، أتفحص كلمات خالــد لي لأتصيد كلمة ربما تحمل معنى مغايرا لما يقول، حتى أكرهه، فلا أجد سوى رقة تحولني دائما من أعماق الغضب إلى أقصى قمم السعادة.

وتلاشت كل ألسنة الكراهية عندما وقع بصري عليه، بــدا لي كأب شردت طفلته الوحيدة وظل يبحــث عنــها دهــرا، وفجأة أهداه القدر فرصة العثور عليها، شعرت برجفة تعتريني عندما تلاقت نظراتنا و لم أشعر بنفسي سوى بين ذراعيه وقــد ارتدت مشاعري ثياب الخوف.

توسدت ذراعه، وحوّلت صدره إلى حائط للمبكى، حــتى أفرغت ما بداخلي من خوف وهو يطالبني هامسًا بمزيــد مــن البكاء، حتى أعود إليه طفلة لا تعرف الحزن، ظللت أبكــي إلى أن وضعني بفراشي وقد تأكد تمامًا أنني قد غشيت مدن النوم، فركع أمام فراشي واستسلم لنوبة عنيفة من البكاء.

استيقظت على صوت موسيقى هادئة وصوت هادئ يهمس باسمي، وما إن التقت نظراتنا حتى ابتسمت رغمًا عني -فذلك الوجه الصبوح لا تليق بتحيته سوى الابتسامة- فقال: كيــف أصبحت مولاتي؟

ــ بخير يا سيد قلبي.

أرجع رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه وهو يزفر بقوة قائلًا: قسمًا بربي وربك أنني أستطيع الآن التبرع بحياتي لمن يريـــدها مقابل تلك الكلمة.

- لا تتنازل عنها، أحتاجها.

صدم رأسه بيده وصدرت عنه آهة هامسة ثم قال بلوعـــة: تقتلينني بكلمات مرسلة ماذا إن قلتِ "أحبك"؟؟؟

- أحبـــــك؟؟؟؟

صاح قائلًا:- يا الله!.. صمت بعدها وثبت نظراتـــه علـــى وجهي ثم قال وقد تلبّسته أقوى جنيات الشعر:

قول أكرهك والحب يا هيه لا تنطقه = راضي بقـــــدري قبل حلوه ومـــرّه معك

وإن غبت شمس المحبة دايمٍ مشرقه = وإن قلت وينك تـــرى قلبي معك يسمعك.

هزتني كلماته وقدرته على ترجمة المشاعر إلى أبيات تـــذيب كل قسوة، وتحوّل الغضب إلى طوفان من الرضا، و لم أجد بدًا من نطق الكلمة التي لطالما طالبني بنطقها وضننت عليه فناديتـــه بجدية:ــــ خالد؟

- "يا لبيه"؟

- أحبـــك.

رفع رأسه إلى الـــسماء وقـــال في امتنـــان: ربي أشـــكر نعمائك...تعرفين..أمس كنت أناجي ملك الجـــن ليمـــنحني تعويذة تسلب قلبك...فائدة تجعل منك شبح الحب المطيع.

- جيد..وهل عثرت عليها؟

- عثر عليها الشاعر رشدي الدوسري، فوجدتني أســتنجد بها في ظلام غرفتي علها تنجدني تعاويذ الشعراء:-

ألم تشعري بشيء قبل قليل؟
ثلاثة طلاسم وبيضة...
وكتبت اسمك بالكحل...
وتذوقت العزيمة
بللتها بريقي اللزج
ورددت مثل ممسوس الوحا الوحا الساعة الساعة
العجل العجل الوحا الوحا

*

هل شعرتِ بوخز أسفل صدرك؟
هي تعويذة واحدة... ليجلبك الجن لي

هل كنتِ مرسومة في لوح الطين؟
مثل خد النبوءات والكتب المقدسة
هل كنتِ كتابًا كُتب بنصف خيال؟
نسخه الأعمى ولم يطلع عليه أحد
سأعيد الطقس وبنفس التعاويذ
حتى يحضرك ملك الجان
أو الخدام المصلوبة أعناقهم أسفل الترقوة
لكن؟؟
ماذا لو طمع بك ملك الجن
وأخفاكِ عنده في دهاليز العناكب الثرثارة
أو أقحمك في نزاع بينه وبين الجنود
ماذا لو ضاجعك ودس رأسه أسفل الحديقة
وتذوّق عنبك الأحمر
وأدمن قزحك النادر
سأصرخ به
أيها الملك النبيل

يا وارث الهواء والبعث واللعنة
وأنتم أيها الجن
أنا الوغد الذي حذرتكم أمهاتكم منه

أيها النبلاء.... سأقتلكم
وألوك عزائمكم مثل تيس الحظيرة
مثل عجوز يلوك همه دون أسنان
وأصرخ بتعويذة جدتي الحوذية
المنقوشة بكهف في وادي الدواسر
وسأستحل نساءكم وأقتل صغاركم
المبعثرين مثل البثور في ظهري العاري
مثل الفراشات

أيها الملك يا أحمقَ مخلوقات الله
وأجبنها وأكثرها غباءً
أعد لي ذات النهد المنسكب
مثل كوب قشدة تزينه كرزة
أعدها لي ملفوفة بقماش من يقطين
أعدها حافية فقد شربتُ الخمر بحذائها
وترنحت متخبطا بأحذية أخرى
وها هو حذاؤها بجانب الأقداح على المنضدة

يا ملك الجن يا ابن الظلام
سأمد ذراعي في أقرب حفرة
وأمسك عنقك وأكسره بيدي
أيها الملك النبيل يا ابن الخطيئة
أعدها الآن عارية
سألبسها فمي

زفر بقوة وأغمض عينيه الآسرتين فلم أجد ما أرد به سوى كلمة "أحبك".

كانت رحلة لندن أجمل أيامي على الإطلاق، فلم أشعر من قبل بذلك الدفء وتأكدت تمامًا أنني من قبل خالد لم ألتق برجل، فلم يسبق لي أن وجدت من يعطي الحب والدفء والحنان بدون أن تثور تلك الزوابع الجسدية التي تحول العلاقة العاطفية إلى شيء حسي يفتقد روعة المشاعر.

عدت إلى لندن وقد تجددت حياتي، وبعث قلبي من جديد، أسكنت ملابس الحداد التي كنت أرتديها دائمًا سلة المهملات، أصبحت أتفنن في منح وجهي ألوانا هادئة، تضفي عليه حيوية وتعطيني إحساسا قويا بالتميز، لم أجرؤ على تقصير شعري بناءً على أمر شديدة القسوة من خالد الذي يعشق الشعر الطويل، ولكنني تفننت في مزاوجته مع عدد من الخصلات الملونة،

واخترت من ألوان الملابس الأبيض والوردي حتى أشعر دائمًا أنني عروس.

بعد ظهر أحد الأيام الممطرة، شعرت بالرغبة القاتلة في الحماية، فذهبت إلى خالد بمكتبه، فوجدته منهمكًا في كتابة بحث ما، ولكن ما إن رآني حتى ترك ما بيده وسألني في ذعر عما حدث، فلم يسبق لي أن زرته بمكتبه من قبل، وشعرت بالخجل من رغباتي الطفولية وافتقادي للأمان فقلت في بساطة: جوعانة.

ابتسم قائلًا: أنا أيضًا أشعر بالجوع.

كدت أرمي بنفسي بين ذراعيه لولا أن التقط "الجاكيت" الخاص به، وأمسك بيدي، وذهبنا إلى مطعم قريب، وما إن تخلى عن "الجاكيت " وجلس أمامي مرتديا تلك الكنزة التي تبرز جسده الرياضي، حتى شعرت بمزيد من البرد يسري بجسدي، فارتجفت، فسألني باهتمام عما أصابني، فأجبت بسذاجة: أشعر بالبرد.

وبطريقة ناعمة وضع "الجاكيت" على كتفي وجلس مكانه وأنا أشعر أنني بداخله، رائحة عطره تسيطر على حواسي ودفء جسده يحيط بي، وحاولت المقاومة حتى لا يلاحظ ما أمرّ به من أحاسيس مختلطة إن لمحها ستودي به إلى الجحيم،

حاولت تناول طعامي -الذي فقدت الشعور بنكهته- تحـــت لهيب من نظراته المتفحصة، فخشيت أن يسألني عمـــا أعـــاني، لأنني لا أفهم ما أريد، ما الذي دفعني إلى ترك فراشي الدافئ في ذلك الوقت وجعلني ألجأ إليه.

بعد تناولنا الطعام، شاركنا الصمت المائـــدة واستـــسلمت لنظراته الحائرة فارتكز وجهي على راحة يدي فبادرني هامسًا: أشعر بشيء يكدر صفو جدولك.

- لا يكدر صفوي سوى اشتياقي لمحادثتك.

- أنا معك الآن، لم الكدر؟

- لم أعد أحتمل ابتعادك، أريدك دائمًا هنا.

وأشرت إلى صدري الذي كاد يخترق مسافة الطاولة رغمًا عني ليضمه، أمسك بيدي وقبل باطنها قائلًا: تزوجيني.

- أكره أن تملني بعد أن تمتلكني بورقة.

- أعدك...لا...أقسم لك بالله..لن يتسلل إلينا الملل أبـــدا، دعينا نجرب.

- حياتي ليست مجالًا للتجارب.

- أعتذر..دعينا نتزوج حتى أزيل مخاوفك، فأنا كمسافر بصحراء التقى بمدينة مهجورة موصدة الأبواب تشتاق للسكنى ولكنها تخشى البشر.

- أريد العودة للبيت.

وما إن توقفت السيارة أمام البيت، حتى شعرت بالجزع، وانكمشت في مقعدي في ذعر حاولت إخفاءه ولكن إحساسه الخبير اكتشفه، فأخذني إلى مكتبه ثانية بدون أن ينطق، وما إن جلست حتى جلس بالمقعد المقابل لي وأمسك بيدي المتجمدة وسأل هامسًا: أريد أن أفهم شيئًا واحدًا، ما سبب ذلك الخوف؟

رددت بسرعة: أشتهي كوبًا من الشاي شديد الحرارة.

عاد برأسه إلى الوراء وأطلق زفرة أشعلت اللهيب بالمكتب، وتعدت المكان لتذيب جليد الشوارع، ولم يرحمني من الاحتراق بها، سوى كوب الشاي الذي احتضنته يداي كدرع حماية.

جلس يشاركني استمراء الصمت، ولكنه كان يراقب ملامحي وكأنه يقرؤني، ويترجم تلك الرموز الغامضة، وما إن شعرت أنه اقترب من فهم ما أمرّ به، حتى سارعت بوضع الفنجان جانبًا، كدت أستأذن بالذهاب، لولا أن أمسك بيدي وقبّلها كعادته في استدراجي حيثُ بساتين الحب، ولكنني

قبضت يدي، فقال وقد نفد صبره: نجوى...تـــزوجيني..أنـــا أحبك..لن أؤذيك أبدا..أقسم لك برب البيت.

- لا أتصور فقدان كل تلك المشاعر..إنهـــا مـــا ذوبـــتني بك..بعد الزواج سيتسيد الجسد الموقف وتتلاشى المشاعر.

- حبيبتي..لن يحدث ذلك..نحن بشر لا يمكن فصل الروح عن الجسد..كيف يمكن أن أعيش طوال حياتي في ذلك الغليان الفارغ..لن أدّعي أنني ملاك.. ولكنني لست شيطان أيضًا. إنني بشر وللبشر رغبات ونقاط ضعف.

- لا أريد أن أتزوج رجلا يقبل القسمة على اثنين.

- هل تطالبينني بأن أهجر زوجتي وأتخلى عن أطفالي؟

- لن أفعل أبدًا، فلست بالتي ترضى أن تتعذب أخرى جراء طيشها.

- إذن.. ما المطلوب مني؟

- لا أريدك كزوج..أريدك كأب وحبيب..عـــصا أتوكـــأ عليها.

- ولكن الحب لا يمكن تجزئته!

في حوار كهذا لا نصل أبدًا لنتيجة سوى بعض الغـــضب الذي يحاول مواراته بعيدًا عن مرمى نظري، وأبى حبي لـــه أن

يتركه تعسًا، فدفعني للإمساك بيده، وكانت المرة الأولى الـتي أسعى أنا إلى لمس يده، فجذبني إلى صدره وطبع قبلـة علـى جبيني وقال: أدري أنك طفلتي لذا سأتركك قليلًا حـتى تهـدأ عواصفك.

- خالد.. أرجوك.. لا تغضب مني.

- لن أفعل يا صغيرتي.

- خالد.

- "يا لبيه"

- أحبك.

مرت عدة أشهر، ونحن نحمل رايات السلم، وفجأة أطلـت علينا طبول الخطر عندما جاءني ذات صباح وقد خط الانزعاج على وجهه أوضح خطوطه، وظل يدور بالـسيارة في حلقـة مفرغة لا تصل بنا لمكان، حتى أصبت بالذعر، وسـألته بعـد طول صمت عما حدث، فقال بعد طول تردد:

- زوجتي..نورة.. سألتني عما بيننا.

قلت: لم؟

قال وقد وضع يديه على وجهه: أخبرها شخص ما.

سقطت على رأسي أقسي غمائم الحزن، فلقد طلبت منه طوال كل تلك الشهور ألا يخبرها، حتى لا تتحول علاقتنا إلى نيران، فسألته: هل أخبرتها أنت؟

- لم أفعل.

- من إذن؟

- لا أدري.. أزعجني رد فعلها الهادئ.

- ماذا فعلت؟

- نورة امرأة شديدة الغيرة عندما تصلها معلومة كهذه وتعامل معها بذلك الهدوء تثور بداخلي عاصفة من التساؤلات.

- هل أنكرت ما بيننا؟

- لا... حتى الموت ذاته لن يدفعني لنكران حبي لك.

- ولكن الثمن بيتك، زوجتك المخلصة وأولادك!

- أحبك.

- وهل يستحق الحب تضحية كهذه؟

- الأيام هي من ستجيب سؤالك.

توترت نبوع السلم بيننا، فقد عاد ليطـــالبني بــــالزواج و لم أستطع التغلب على خوفي، وفشلت كل تعاويـــذ الـــشعراء في

منحي القوة لتخطي ذلك الذعر إلى أن فاجئني يوما بقرار السفر.

جاءني وقد حجبت عينيه عني نظارةٌ سوداء، وأخبرني أنه قرر أن يأخذ قسطا من الراحة بعد أن أجهدت قلبه مقاومتي، لم أطالبه بالبقاء رغم أنه كاد يستجديها مني، ولكني اكتفيت بقولي: سيفتقدك مطر مانشستر، سأكتفي في بُعدك بعد حبات المطر وتعلم كم أكره الإحصاء.

- أخبريني أنك مشتاقة إلى ضلوعي وسأمزق بطاقة السفر وسأشنت جمع حقائبي.

- أخبرتك من قبل.. لم سأشتاق للضلوع وبحوزتي القلب؟

- لن أطالبك بها ثانية..إنها المرة الأخيرة.

- لا تكن واثقًا..ستعود.

- ببريدك الإلكتروني هدية لا تفتحيها سوى بعد مغادرتي.

- حاضر.. بسفرك ترفق بصديق عمري وحب حياتي.

- ترفقي به أولًا حتى يألف روعة الرفق.

غادر وقد غادرتني معه أمواج الحياة، وجريت على بريدي الالكتروني أقرأ ما أهداه إلي، فوجدت منه رسالة ما إن صافحتها عيناي حتى تجمد مني القلب وتكلّست المشاعر، قال:

حبيبتي الأولى والأخيرة:

صدقيني لم أبتعد إلا لأجلك.. لذلك اعذريني وثقي بأني سأعود إذا تلاشى ما بداخلي لك.

لم تعد نفسي المتطلعة تقنع بذلك الفتات الذي تجود به مشاعرك عليّ، لم أعد أشعر بذلك الخدر الذي يصاحب سماع صوتك، فكثرة الصد قتلت بي القدرة على التسامح!

أحبك ولكنني رجل تأبى نخوته ونعراته عربية الصنع أن ترفضه أنثى، حتى وإن كانت من تُحوّل النار المشتعلة بدمائه إلى أوكسجين.

أعادني رفضك لي كرجل إلى زوجتي صاغرا فكتبت إلى نفسي بلسانها:

ارتواء لا يعرف العطش هذا هو أنت!!! شددت الهمة وأنكرت الذات وتخلصت من كل أجزائي المعطوبة وقنعت بما بقى مني ولو لم يكن كافيا، نظرت إلى نفسي واثقةً فرحةً ببلوغ الكمال في عينيك، أقبلت إليك فمررت من خلالي وكأني لم أكن أمامك!!!! ركضت خلفك، لحقت بك لأصدم بحقيقتك التي طالما رفضت تصديقها......

فكلام كنت تسمعه لي بالأمس البعيد.... صار اليوم لأنثى غيري!!! بالأمس..كنت تشبعني إلى حـــد التخمـــة بكـــلام كالسحر.. ينجلي ويتبخر شيئا فشيئا مع كل رشفة ترتـــشفها مني وا أسفي على كل ما فعلته من أجلك اليوم.. لم يتبق مـــني شيء.... ما أنا إلا طيف يعجز عن الفعل.. فالروح ولت مـــع آخر جزء ضحيت به.... وبت طيفا تمر من خلاله إليها..."

نجواي.. سأعود عندما تنضب بـــداخلي نـــيران الـــشوق للمسك، وسأعود جسدي أن ينظر لك فقط كنيران صديقة.

سامحيني فعلى الرغم من كل ما سأفعل، ستظل جذوة الحب تنتصر على ما يعتليها من رماد.. أرجوك سامحيني.

أغلقت جهاز الكمبيوتر وجلست أردد كلماته وقد منحني الذعر رداءه، كل ذلك الحب كان لرجل لا يستحق؟ بـــددت كلماته كل أحلامي، شتتت أحاسيسي، وحولت قلبي لوادٍ من جحيم!

كل ذاك الحب الذي خدر عقلي وحولني إلى عمياء أتحسس بقلبي الطريق إليه محاه بكلمة واحدة، كما يمحو المطر رســـالة حب كاذبة قذفتها قارئتها إلى عرض الطريق.

إنها المرة الأولى التي تقذف كلماته ذلك الرماد لينتثر علـــى قلبي ويحول كل ما بيننا إلى سراب..لا شيء..هراء..

هو من جذبني إليه.. منحني الدفء.. الحب.. والعطف... وبدلا من أن يأخذ قلبي بين يديه ليقبله، قذف به أمام زوجته لتسحقه قدماها بكل ما أوتيت من قوة!

ولكنني من دفعته لذلك التشظي، حولته إلى نصف حبيب ونصف زوج و لم أستطع لملمة شتاته، جذبته كأنثى محرمة عليه شرعت له أبواب بساتيني، وعندما حاول الدخول، صفقت بوجهه أبواب رحمتي.

كتمت جزعي وحزني وأرسلت له بجملة واحدة جردتها من كل مشاعر كتبت إليه "حبيبي الجاحد وصديقي الأوحد:

إن قتلت حبيبي بداخلك، فأرجو أن تترفق بصديقي الأقرب، ولا تدعه يلقى -على يديك- نفس المصير".

وأغلقت هاتفي وباب غرفتي ودخلت تحت شراشف فراشي أحتمي بها، فلم يعد لي حضن أحتمي به، وعندما تنتابني نوبة من هستيريا البكاء، أحتمي بإحدى الوسائد لكي تلتقط آهاتي وصرخاتي وجزءًا من عبراتي.

مر شهران حتى حولت نفسي من عاشقة إلى جسد منزوع الملامح والمشاعر، فخرت بنفسي وأنا أمحو رقم هاتفه من قلب هاتفي، وأزيل بريده الإلكتروني من قائمة أصدقائي، وكتبت على حالتي على الماسنجر"اليوم...قتلت خالدًا".

غيرت أيضًا رقم الهاتف، مطعمي المفضل ومطربي الأثير، بدلت نوع سجائري لأتغلب على عشقي لرائحة أنفاسه، حطمت زجاجات عطري الشرقي الذي أهداه إليّ بعد كل مرة أزوره بها، قصصت شعري الثائر الذي كان يذكرني بلمساته شديدة الرومانسية، فأصبح يلامس أسفل عنقي بمعجزة، قطعت دواوين الشعر ودفنت قلبي بين دفتر الذكريات.

كنت تراقبني وأنا أقطع بحار الوجع وحيدة، دون أن تمد إليّ قشة التعاطف، لذا قررت ألا تراني سوى بعنفواني وقوتي، ولم أسمح لك بمشاهدتي أنهار كمبنى لم يتحمل ثقل الزمن.

حولت ألمي وحزني إلى جهد، بذلته لأساند طفلتك التي زاد عليها المرض، وفجر ألمها بداخلي ينابيع الأمومة الجافة، كنت تشفق عليّ من السهر بجوارها، ولكن الطاقة بداخلي كانت دائمًا ما تنتصر على شفقتك المزعومة.

كنت قد أقنعتكم باستئجار بيت قريب وبدأت في تجهيز نفسي للانتقال، إلى أن طلبتْ مني "هانيا" -قبل عودتها "بسما" إلى مصر في فترة نقاهة- الاهتمام بك، ووعدتها، ولكني شعرت بشعور غريب سيطر عليّ، عندما أصبحت بمفردي ببيت يغلق بابه علينا!

كنت تعاملني برفق أكثر، خاصة عندما دفنت خالد بين سطور الماضي، وزاد الرفق عندما غادرت "هانيا"، كنت

تدعوني إلى السينما لمشاهدة فيلم، تحضر لي الشوكولاتة بدون داع، وتصحبني إلى العشاء في الخارج، كنت أعتبرها نوعا من حسن المعاملة إكرامًا لشقيقك الراحل.

إلى أن كانت تلك الليلة التي قررت فيها إعداد العشاء على صوت صخب الموسيقى التي نسيت نفسي معهـــا، وأخـــذت أتمايل معها وأدور حول نفسي في جـــزل، كطفلـــة صـــغيرة، ووسط تلك النشوة البريئة اصطدمت عيناي بك.

رأيتك واقفًا بطولك الفارع تراقبني، كما تراقب سما وهـــي تلهو بحديقة المترل، توقفت الحياة من حولي، وداهمني خجـــل كنت قد نسيته عندما اقتربت مـــني في رفـــق وجـــذبتني إلى صدرك.

لم أتحرك من مكاني، فقد تجمّد مـــني القلـــب وتيبـــست الأطراف ودفنت رأسي بين ضلوعك، نسيت طارق وخالـــد وهانيا..نسيت كل شيء، فقط تذكرت ذلك الصقيع الـــذي اجتاح كياني وحولني إلى شيء لا أعرفه.

عندما رفعت رأسي لتناديني وتخبرني أنك أحمد، وطلبت أن أنظر إلى وجهك، لم أكن أدري أن بداخلك كل ذلك الشعور، و لم أستطع التمييز لحظتها بين إحساس الحب ومتطلبات الرغبة.

طالبتني بنطق اسمك فلم أتحرك، وظللت مصلوبة إلى صدرك الذي يغلي كالجحيم فيتناثر عطشك على جسدي ليحـــرقني،

مازلت أحتفظ برماد تلك القبلة على شفتي إلى الآن، كتذكار حب ولد لأم خائنة وأب جاحد.

لم أشعر سوى بيدي وهي ترسم حروف اسمي الذي عـانق اسمك للمرة الأولى وعدد من الأشـخاص مجهـولي الوجـوه والملامح يباركون زواجا لا أدري متى تم، وابتسامة فاقدة المعنى رسمت على وجهك.

جلست على حافة فراشي أتطلع بفزع إليك وقـد أصـبح صدرك العاري متاحًا لنظراتي، وتلك القلادة الذهبية تتحـرك معك ذهابًا وجيئة فيتحرك معها قلبي، انكمشت بمكاني عندما جلست بجواري تهمس لي بتلك الكلمات التي فقدت معناهـا لدي، فقد سئمت ذلك العناق الأبدي بين الحاء والباء ووصف تلك العلاقة المبتذلة بينهما بالقدسية والصدق.

كنت قد فقدت روعة المعاني وحب الكلمات عندما سمحت لخالد بالابتعاد، ووجدت نفسي بين لحظة وأخرى زوجة تحمل اسمك الغالي "أحمد"، وطال جلوسك بجواري وأنـا أحـاول استحضار قلبي وبعث تلك المشاعر التي أيقظتـها للحظـات، فضلت طريقها إليّ، لذا عندما هممت بطبع قبلتك على جيدي المتشنج، وضعت يدي على صدرك وطالبتك بعدم التعجل، فلم أجد من الأحاسيس ما يوقظ لديك خلايا الانبهار.

وصفتني بأسيرة الماضي، وأخبرتني -كذبًا- أنك تتفهم ما أشعر به، وظللت طوال الليل تدعوني لإفراغ ما بداخلي من كبت ومن وجع، بعد كل ما مررت به، ولكن كل محاولاتك انتهت بي نائمة على ذراعك، أحلم بغدٍ رجوتـه أن يأتي لأكتشف أن كل تلك المحاولات لاستمالتي كانت حلما!

استيقظت على صوتك الهادئ تحادث شخصًا ما، وما إن انتبهت لي، حتى طبعت على خدي قبلة وطالبتني بسرعة تجهيز حقيبة سفري، وحزنت لأن ما توهمته صار حقيقة لا تقبل الجدل، دخلت لأغتسل حتى أمحو غبار تلك الأحداث عن رأسي، صففت شعري وارتديت ملابس تليق بالمناسبة وذهبت معك بدون أن أسأل عن وجهتنا، فقد تساوت لدي لحظتها جهات الأرض الأربع.

وصلنا إلى مكان ساحلي شديد الجمال، شديد الهدوء، وما إن وضعت قدميّ بداخل الغرفة، حتى أغلقت الباب وأخبرتني أنني لديك أسيرة، وطالبتني بفدية عظيمة حتى أحصل على حريتي وكانت الفدية عددا من الكلمات وآه..كم تفعل برءوسنا الكلمات.

كنت تطالبني بالإفصاح عما بداخلي، حتى نبدأ بداية تليق بشخصين مثلنا، ولكنني لم أستطع استحضار ذلك السواد الذي

يغلف رئتي، وظللت صامتة إلى أن حـــلّ الظـــلام وتـــركتني لتستريح قليلًا تحت شلال من الماء الدفيء، ووجدت نفسي أنظر إلى البحر وأذهب بخيالي إلى هناك، حيثُ يقـــيم خالـــد بـــين تلافيف ذاكرتي، وقد بعثه هول الموقـــف، فـــشعرت بغُـــصة، وتذكرت كيف غادرني لصالح زوجته، وتذكرت أيضًا كيـــفَ منعتُ نفسي عنه خوفًا من تلك الورقة التي أمهرتها بإمـــضائي ليلة أمس!!ضغطت على أنفاسي حسرات الماضـــي وخيبـــات المستقبل، عندما رأيتك وقد خرجت من الحمام تحمل شـــعرًا فاحمًا تتساقط منه قطرات العطر والرغبة، فلملمت كل مخاوفي في صرخة واحدة صدرت من أعمق أعماقي، وارتميت علـــى الأرض أبكي، وقد نسيت أنني لست بمفـــردي وأن عينيـــك الحائرتين تتجولان بداخلي، لتستكشفان ذلك الوحش الخيـــالي الذي يثير ذعري.شعرت بذراعيك القويتين تحيطان بكل مخاوفي وتضمني إلى صدرك في رفق وحنان لم أعهده، وكفكفت على صدرك دموعي، شعرت بجحيم أطفأ بداخلي زمهرير الخـــوف عندما وضعتني بفراشي، وأحضرت لي ذلك المشروب الحـــار، ووضعت رأسي على صدرك كي تشرف على احتسائي لـــه، قلت ليلتها كلمات كثيرة اتسمت بلون اللهيب، اســـتجديت مني فرصة تستحقها علاقتنا، طالبتني بمبادلتك حبا شعرت بـــه منذ رؤيتي للمرة الأولى، وبرهنت عليه بمواقف كثيرة ذكـــرتني

بوقعها على نفسي.توجتني ليلتها ملكة لضلوعك، ضممتني إلى صدرك بقوة وأخبرتني بكبرياء أنك لم تتزوجني فقط كتلبية لنداء جسد ضاري الجوع، وإنما كوسيلة يائسة للبحث بداخلي عن ذاتك الضائعة، فلم أخضع لحر كلماتك، فقد شعرت لحظتها أنني ملكة لرجل..يقبل الانشطار على اثنتين. مملكة تتقاسم عرشها ملكتان، ملكة مخدوعة نائمة بفراش العسل منعها حب قديم من تنفيذ دستور الملكات الأزلي مسن قتل للذكر بعد فعل الحب الأول، وملكة ضائعة تفترش قلبا لا تثق بعقد ملكيته، تتنازعها ألف رغبة في أن يحتويها قلبك، وألف أخرى في أن ترمي به إلى الجحيم، مملكة ضاعت بين فعل الحب وفعل الخوف ووقفت أنت حائرًا بين الاثنتين. في الصباح الباكر صاحبتني إلى شاطئ بعيد، وطالبتني بمشاركتك متعة السباحة، ولاحت بعينيك تلك النظرة الساحرة عندما أخبرتك بخجل أنني لا أجيد السباحة.كنت أحتاج دهرًا حتى يقنعني أحدهم باعتلاء الماء، فقد كان الخوف من الغرق يفوق لديّ كل خوف، ولكن عندما أمسكت بيدي وطالبتني بالاسترخاء التام والاستسلام للماء، وأخذت تهدهدني كطفلة شعرت براحة افتقدها لسنوات، وفتحت عيني لأرى تلك النظرة التي فاضت فأشعرتني أنني أعتلي أعلى قمم الحب، فطوقت عنقك والماء يحركني برفق كفراش حنون، لتحملني أنت وتقطع تلك المسافة

عائمًا كدولفين لطيف يتحرك بحب وألفة فأشـعرتني للمـرة الأولى بالأمان.ووجدت نفسي أضمك بكل قوتي ليس لرغبتي في الحماية ولكنني شعرت أنك رجل تستحق مني الرفق بعد أن شعرت أنني سكرى وقد تناولت للتـو مـن يـدك كـأس الحب.ووجدت نفسي -رغما عني- أقف أمام المرآة لأتجمـل وأتفنن في زينتي حتى أبهرك، وكم سعدت بتلك النظـرة الـتي منحتها لي على حين غرة، فأيقظت لديّ كل أحاسيس البـشر في الرغبة للتوحد مع الآخر، ولتحول بركان الذعر بداخلي إلى جحيم حب يحرقني ويحول كل شوقك -فيما بعد- إلى رماد.

بعد عدة أيام، كنت قد اعتدت حياة الرفاهيـة العاطفيـة وأنفقت تلك المشاعر ببذخ، بدون أن أخشى نفادهـا، وقـد شعرت بها تتكاثر بداخلي ألف مرة بكل ثانية، وتحول الجفاف الذي كنت أشعر به إلى منابع تلهم العالم من حـولي شـعور الحب.وانتهى الحلم لنعود إلى "مانشستر" مثقلين بالـذكريات، نجرجر خلفنا أذيال الحب، عادت "هانيا" إلى البيت وبـدأت أشعر أن الأرض لن تقوى على حملنا معا، وعملت بكل وسيلة حتى أسرع للانتقال إلى بيتي، حتى لا تشعر "هانيا" بما حدث، فقد أشفقت على نفسي من نظرتها إليّ كسارقة أزواج، وحتى لا ترتكب أنت حماقة مداعبتها أمامي، فأذبحك بيدي ويتلـون الحب بلون الدماء!

عندما انتقلت إلى بيتي تنفست بعمق، فقد نلـــت حـــريتي وابتعدت بك عن نظرات هانيا المتفحصة، ولكـــني افتقـــدت تحرشك بي من خلفها، وصدقت قولـــك الـــشهير إن الحـــب الممنوع أكثر إثارة من الحب المتاح!

ولكن بالرغم من أن الزواج حوّل علاقتنا إلى قائمة الحـــب المتاح إلى أن تلك الجذوة لم تنطفئ بيننا، فقد كنت تتفـــنن في جعلي أتشوق إليك، وعندما تدرك تمامًا أنك تكـــاد تفقـــدني صوابي تعود إليّ لنموت معًا.سميتها "لعبة الموت" فلا يليق بكل تلك المشاعر التي تحرّك العالم من حولنا، وتحولنا إلى سكارى – في النهاية– سوى الموت، علمتني كل ألعـــاب الـــصبر، ففـــي لحظات غيابك تفننت في إحصاء النجوم وتماديـــت لأكـــون علاقات بينها مشكلة دوائر تحيط بها، وكأنني مركـــز العـــالم، وأدمنت تلك اللعبة التي تماهت مع سطوتي كأنثى، لذا كنـــت أطالبك أن تعاملني كما تعاملني النجوم، فقد كنـــت أتمـــنى أن أكون محور حياتك.في صباح أحد الأيام، كنت أتناول إفطاري بأحد المطاعم غير مهتمة بذلك المطر الذي غسل كل شيء من حولي، حتى استشعرت ذلك العبق يحيط بي من كـــل اتجـــاه، وسارعت ذاكرتي بمطابقته بغيره من النسائم، شعرت بـــالأرض تتحرك من تحتي، عندما وقف"خالد" أمام طـــاولتي مـــشدوهًا يتطلع إليّ بغير تصديق، وبعد طول تأمل ناداني قائلًا: "نجوى"؟

قلت في بساطة: نعم.

قال في ذهول: هل قصّرت شعرك؟

قلت: هل هنا قانون يمنعني من تقصير شعري والتخلص من لونه القديم؟

قال: ماذا حدث لنجوى التي أعشقها؟

رفعت يدي اليسرى وقلت: هجرني حبيب فكافأني الله بزوجٍ مُحب.

استمتعت بذلك النحيب المكتوم الذي صدر عنه، وتلك الدموع التي ملأت عينيه وحوّلت صدره إلى مرجل، لم تسعفني محركات الرحمة بداخلي عندما وضع رأسه على الطاولة وهو ينتحب كطفلة فقدت لعبتها الأثيرة.طال النحيب وكثرت تنهدات الحسرة وأنا أتناول إفطاري بهمة لا تفتر، وبعد أن طال المشهد وجدت أنه من الواجب أن أُقدّم له كوبا من الشاي يساعد على تمزيق أحشائه، وقلت له في رقة أفعى: لا تتألم من أجلي، أنا مغلفة بالحب كهدية غالية، فأحمد لا يتوانى عن إسعادي.

بذكر اسم "أحمد" اشتعلت أمطار مانشستر من حولي، وتحول الثلج إلى بخار، صاح بي قائلًا: "هل منحت نفسك لأحمد"؟

- رغبت به كرجل..وتدري أني أحب تلبية رغباتي.

تقطعت أنفاسه ولا أدري لم صمت حتى شـعرت بـالقلق لفقدانه حاسة النطق، فباغته بسؤال: هل استراحت نورة؟

- من تدري أن زوجها متيم بأخرى لا تستريح.

- ولكن الأخرى انتهت من حياتك..ماتت.

نظر إليّ بعتاب وقال:

ياللي عنا رحت وتخليت..تارك القلب بعدك بلوعة وحيرة

تدري إني ببعدك تحليت..بحب الأحزان وشوق المنافي وغيرة

وضع رأسه بالأرض وقال: لـن ألومـك، فقـد كـان خطئي..لن أؤذيك فلم تمنحيني سوى السعادة ولكن ما يقتلني أنك آثرت عليّ أحمد.

- إنها فلسفة النصيب.

- أكره تلك الفلسفة، إننا من نصنعها، ماذا أفعل الآن؟ لقد كنت أعد الثواني حتى أفوز برؤيتك وقد رأيتك ولكن بأحضان أحمد الذي أمقته.

- احذر خالد.. إنه زوجي ويجب عليك احترامه.

ازدرد ريقه في صعوبة وقال: أين أقف الآن؟

- أنت صديقي ولا أحد صعوبة في التواصل معــك رغــم غيرة أحمد الشديدة من نسائم الخليج كله إكرامًا لك.

- كيف أصدق ما حدث؟

أشعلت سيجارة ونفثت بوجهه دخانها دفعة واحدة وقلت: أنت من خلقت الفعل.. لِمَ تتحسر؟

- رباه. ظننتك تنتظريني حاملة عقد زواج ينتظر إمضائي.

- خالد أيها العزيز...حياتي لا تحتمل الانتظار.

أخذت معطفي وغادرت فصاح باسمي: نجوى....

وبلا وعي أجبته: "لبيه".

فقال: أحبك.

سقطت السيجارة من يدي، وسقطت معها كل مــشاعري لتسحقها خطواتي و لم أرد، أسرعت في الخطو وقــد زينــت وجهي للمرة الأولى -بعد زواجنا- أكاليل الدموع.

لا أذكر ليلتها كم عدد المرات التي أسمعتك بها كلمة أحبك وكأنني أؤكد لنفسي أنني لم أتخذ ليلة تزوجنا القرار الخطأ، حتى فاجأتني بتلك الكلمة التي رميتها لتحرق كبــدي وتــشعرني بالخوف منك عندما قلت: كلمة أحبك الليلة مــشبعة بعطــر خالد.

لحظتها تخليت عن مكاني بين ذراعيك، وذهبت بعيدًا لأستعين بسيجارة ظننت أنها تخفف عني وطأة الصدمة، فلم أتصور أن حتى كلمة "أحبك" التي تولد بين شفتي تعطرها قبل أن تخرج أنفاس خالد. ظللت إلى الصباح أتأمل وقع كلماتك، ووقتها فقط علمت أنني أخطأت خطأ عمري عندما سمحت لنفسي بالزواج من رجل يعلم أنني عشقت قبله، فككل شرقي يرغب أن يكون بقلب امرأته هو الأول والأخير.

بعد عدة أيام من هجرانك ،هاتفني شقيقي محمد ليخبرني أن شقيقنا الأكبر يعاني مرضًا خطيرًا استوطن كبده وطلب باكيًا مساعدتي.

أنهيت المكالمة وقد تخلت الشمس عن سمائي، و لم أجد من أستنجد به سواك، فأنت زوجي وحبيبي فلم أجد منك سوى كلمة "أعتذر..مشغول جدًا ولن أستطيع السفر في الوقت الحالي".

دفعتني للجوء إليه، وما إن فعلت، حتى هبّت كل خلاياه لنجدتي، وأخذ يدور حولي في نشاط، يحادث غيره من الأطباء ويأخذ مشورتهم ويعرض عليهم الأشعة والتحاليل، إلى أن أجمعوا على ضرورة زرع كبد غير الكبد الذي ذبحته النكبات والخيبات وقهره الفقر.

عدت إلى القاهرة لأتابع من بعيد ما يحدث، فلم يجرؤ محمد على إخبار شقيقنا "السيد" بأنني من دفعت له لإجراء العملية، فقد أقنعه أن أحد نواب مجلس الشعب قد استصدر قرارًا لـه بإجراء العملية على نفقة الدولة.

في أثناء العملية، كنت على الهاتف مع خالد، حضوره معي ولو بالصوت طمأن قلبي، أما أنت فقد انشغلت عني، وكـأن كل ليالي الحب بيننا قضيتها مع أجيرة، حتى عندما أنزع عـني كرامتي وأحادثك كنت تكلمني باقتضاب وكأنك تحادث امرأة لا تعرفها، كنت أشتاق لكلمة تشعرني بالأمان وتنزع من قلبي كل ذلك السواد، ولكنك لم تكن تأبه!

منعني الخوف على حياة شقيقي من الطعـام والـشراب، وجلست أمام غرفة العناية المركزة أدعو الله جاهدة أن يمنحـه الحياة حتى يسامحني، واستجاب الله لدعواتي ونبضت عـروق الحياة بداخله بعد طول توقف، كنت أدخل غرفته وهو تحـت تأثير المخدر لأقبله وأبكي وأطالبه بمسامحتي، وتمنيت لو امتلكت الجرأة لأفعلها عندما تحسنت حالته، فخوفي من انتكاسـة قـد تسببها صدمة لقائي دفعني إلى تجنب زيارته، وكنـت أطفـأ شوقي بنظرات أختلسها إليه وهو نائم.

شهر كامل قضيته بالقاهرة، و لم يعانق رقمك هاتفي، كنت أمسك بالهاتف وأنظر إلى شاشته علها ترحمني ولـو بطريـق

الخطأ، ولكنك لم تفعل، أغرقتني بحار الحيرة فلـــم أدر ســـببا لقطيعتك.

حتى عندما عدت إلى مانشستر، وجدت بيتي باردًا خاليًا من عبق أنفاسك، انتظرت طويلًا أن أسمع دقات يدك على البـــاب ولكنها كانت قاسية –مثلك– فلم تدق.

حاولت الانشغال بالدراسة، ولكن قلبي حرمني الـــسلوان، إلى أن أعلن هاتفي أخيرًا رغبتك المحمومة في محادثتي، ورددت، فسألتني بودٍ عن أحوالي وعن شقيقي وطالبتني في النهاية بتناول الغداء في اليوم التالي في منزلك.

عادت الروح مرة ثانية إلى خلايا دمي، فـــصوتك وحـــده كفيل باستعادتها، وقضيت طوال الليل أقف أمام مرآتي، أتأمل وجهي وتأثير نظراتي وأفاضل بين وقع اللفتات حـــتى أبـــدو أمامك بالصورة المثلى، صورة المرأة الأسطورة، شديدة القـــوة والضعيفة أمامك بامتياز.

جلست أمامك على المائدة أقلب نظري في الطعام أمـــامي، وأتابعك من طرف خفي، كدت أصرخ بك –رغم كل شيء– اشتقت إليك تمنيت أن أتحول لسكين طعام تطبق عليـــه يـــدك بتلك الحميمية أو حتى فوطة تعانق شفتيك بعد الانتـــهاء مـــن الطعام.

عندما عرضت مرافقتي إلى البيت، رفضت، وأنا أدعو الله جاهدة أن تمارس هوايتك في عنادي ولكن ردت كل دعواتي عندما ابتسمت ومددت يدك لتسلم عليّ، وطالبتني أن أهتم بنفسي، لحظتها تمنيت ذبحك، تمنيت أن أطالبك أمام زوجتك بحقي في الاستئثار بنصفك، وكم كنت مخطئة عندما قنعت بذلك النصف الذي ما إن أطبقت عليه حتى تلاشى واكتشفت أنني ما أطبقت سوى على لا شيء.

جلست بقية اليوم في ظلام غرفتي، أستمع إلى كل أغاني الهجر وألعن حظي الذي جعلني نذرًا مباحًا للهجران، وجعل حياتي مسرحًا للتخلي بجميع أنواعه، فقد مارست حقي في الهجر مرة واحدة يوم فضلت طارق على إبراهيم، ليردّ لي القدر بعدها الصاع ثلاثة، ليؤثر طارق الموت علي، ويهجرني خالد بعدها بتلك الطريقة، وها أنت ذا تعاملني بطريقة قريبة من جمر التخلي وجليد الهجران!

تغطي الموسيقى على صوت المطر الذي يخيفني، ويغطي الخوف بداخلي حزنٌ يتمركز حولك، أكاد أخرج في ذلك الصقيع وأنا ممسكة بقصيدة رشدي الدوسري أتلوها مرارا وتكرارًا عليها تصيب قلبك في مقتل وتعيدك إليّ.

تناهت إلى مسامعي طرقات، وانتابني ذعر، وانكمشت بفراشي كقطة جبانة، إلى أن أعلن هاتفي أنك ترغب في فتح

حوار معي، أجبت بسرعة لأستمع إلى صوتك الهامس تطالبني بفتح باب مملكتي، وانطلقت إلى الباب الذي يفصلني عنــك، أكاد أقتلعه من مكانه، و لم أنتظر دخولك ورميت بنفسي بــين ذراعيك.

جلست أمامي صامتًا تنظر إليّ بعينين خاليتين مــن كــل التعابير، كرتين من زجاج تتحركان في قلق واضح، تعكــسان صورة امرأة تجلس أمامهما ولا تنتمي إليهما، بينما يشع مــن قلبي حب يستطيع بعنفوانه أن يغلّف مساحة الكرة الأرضــية، حاولت كسر حاجز الصمت فقلت: اشتقت إليك، أين كنت طوال تلك الفترة؟

قلت في بساطة: عملي يستنفد كل وقتي وجهدي.

لم تقنعني حجتك الهزيلة فسألت: وأنا؟

وبدون أن تدرك حجم كلماتك قلت: أنتِ بقلبي، أحملك في الذهاب والعودة أنظر إلى ملامحك قبل أن أنــام وبعــد أن أصحو.

قلت وقد بللت الصدمة جبيني بعرق الخوف: هل هجــرتني من أجل تمثال يشبهني صلبته على جدران قلبك؟

- التماثيل الخيالية أكثر كمالًا.

- ماذا تقصد؟

- أحمل لك بداخلي صورة جميلة، وقد أتيت لمطابقتها بالواقع.

كلماتك أثارت القلق بداخلي، وتحوّل دفء الحب الذي يشعه قلبي إلى جليد يجمدني ويجمد العالم من حولي، وبدلًا عن صفعك بكلمات تناسب جحودك، ارتميت بداخلك أبحث عن نفسي وأبحث وسط كل ذلك الركام عنك.

قبل أن تغادرني، ربت كتفي وقلت في رقة: "سامحيني وابحثي لي عن عذر لاختفائي وابتعادي أحيانًا".

شعرت بحنان غامر يجرفني بطريق احتضانك فطوقت عنقك قائلة: "إن ماتت كل الأعذار سأتهم نفسي ولن أتهمك يا...عمري".

لحظتها تركتني ووقفت أتطلع إليك وأنت ذاهب، فحانت منك تلك الالتفاتة وقلت بصوت خفيض: "نجوى...أثق بأعذارك".

غيبتك السيارة ووقفت أمام المترل أتطلع إلى لا شيء، فقد التقط رادار الأنثى بداخلي شمس حب تبدأ في التواري خلف شفق النهايات.

أخذت أضيع ساعات عمري بالانتظار تارة، وبالتمني تارة أخرى، أنتظر أن تكذب إحساسي وتأتيني كإعصار افتقد الجموح، ولكن هانيا قامت بتلك المهمة يوم وجدتها تنتظرني أمام البيت وقد أغرقت الدموع عينيها.

انتابني خوف من اكتشافها لزواجنا، فقد كنت أخجل أن أظهر أمامها بالخائنة، صفقت باب السيارة خلفي ووقفت متجمدة بمكاني، لتأتي هي وترتمي بين ذراعي في انهيار، خفتت شعلة الذعر بداخلي قليلًا، فأخذتها للداخل وقدّمت لها كوبًا من الشاي الحار، وأنا أكاد أتجمّد، طالت فترة الصمت وأنا أتشوق لمعرفة السبب الذي دفع الملكة الأولى شديدة التماسك لذلك الانهيار.

قالت بهمس وهي تقلب فنجان الشاي بين يديها: إنه..أحمد...تأكدت أنه يخونني.

وضعت يدي على صدري أبحث عن قلبي الذي اختفت نبضاته، وسألتها في سرعة: كيف علمتِ؟ هل أخبرك أحد؟

قالت وهي تستحضر روح الكبرياء الضائع: رأيتهما.

سقطت بسالتي وفقدت التماسك فجلست أمامها: لا أعتقد أن أحمد يفعلها.

- أنا أدرى به...أقرأ الخيانة بصفحة عينيه.. أرى بعينيه امرأة أخرى أكاد أقسم...كلما اقترب مني شممت رائحتها بأنفاسه..تدرين..اليوم تأكدت أنني أحمل بين جوانحي طفلاً آخر...كيف أتحمله بداخلي وقد تأكدت من خيانة والده.

عندما قالت "تدرين" بدون أن تعقبها باسمي تأكدت تماما أنها تقصدني أنا، فلا تحمل خلجاتك عطر أحد سواي، جلست أتأمل دموعا فشلت في كبحها، وشعرت بخزي لم أشعر به طوال علاقتي بها، رحمتني من طول الصمت عندما قالت: لم أكن أتصور أنها تفعل ذلك بي فهي صديقتي الأثيرة.

تظاهرت بالبله وأنا أقول: الصديقة لا تخون ربما ما تشعرين به هو محض توهم.

قالت وهي تحاول التماسك: سمعت بالمصادفة مكالمة مسجلة على هاتفه، ورأيته معها.

أغلقت الدنيا بوجهي كل أبوابها وهممت بأن أخبرها أنني لم أخنها، لقد قنعت بشطر منه، ارتضيت من أجلها أن أكون زوجة الظل، بينما تركت لها كل الفخر بكونها زوجته، أنام وحيدة تتخبطني أشواق اليأس وتنعم هي بدفء ذراعيه، تحمل هي طفله بينما لا أحمل بداخلي سوى اللوعة وشوق يدفعني للبكاء كلما لامس جسدي برد الفراش، حرمت من حقي في الحصول عليه كلما أردت وتركت لها كل الحقوق.

بينما أبحث عن أسباب مقنعة لإخفاء خجلي نظرت إلى عيني مباشرة وقالت: تدرين من هي يا صديقتي؟

أمطر الذعر على رأسي وقلت: من؟

قالت:- إنها.....نوران...صديقة عمري.

لم أستطع إغلاق عيني وظللت ناظرة إليها في هلع، كمن فاجئه عفريت، ترجم لي عقلي في لحظات تصرفاته السابقة، فتحمّلت الطعنة وأنا أترنح، وحاولت أن أبدو طبيعية حتى أستطيع الحصول على معلومات أكثر فسألت: أين رأيتهما؟
- كان خارجًا من منزلها وكانت معه تحتضنه كأنه ملك لها، وكان معي بالأمس وأشعرني أنني أمتلك صولجان مملكته، كم أشعر بالقهر!!

اقتربت منها وأخذتها بين ذراعيّ وهمست وقد طوقت عنقي مشنقة الرغبة في البكاء: إنه ملك خالص لك...لن تأخذه أخرى.

قالت وهي تبكي: لقد أخذته بالفعل...ضاع أحمد...ضاع عمري وملك قلبي.

قلت وأنا أغالب نيران الدموع: لم يضع، إنها نزوة فقط وسيعود.

قالت:- لن يعود.

ـ بل يعود كل يوم يطلب بين ذراعيك الدفء ويقبل جبينك، يكفي أهن عشيقات في الظل، أنتِ الأصل والمرجع.

- كيف أتحمل؟

- بقليل من الصبر، إنها طبيعة كل رجل، لم يخلق رجل يكتفي بواحدة.

- ولكنني أعشقه.

- وهو أيضًا يعشقك.

- بعد ما رأيت؟ وسمعت؟

- لن يمنح لعشيقة شرف حمل طفله بداخلها.إنها في النهاية عشيقة.

قالت: ماذا أفعل الآن؟

- ارتدي ثوب التحمل..سيعود بعد أن يمل ليحمل طفلك.

ـ كيف أتحمل؟ وكرامتي.

- الكرامة هي ألا تستأثر بزوجك عشيقة..لا تتركيه لها فهو ملك لك.. لن يمنحها عقد ملكية أبدا.

- سأموت.

- سأساندك عندما تشعرين بعدم التحمل، فقط تعـالي إليّ لأساندك.. فكم ساندتني.

احتضنتني وهي تقول: نجوى...أنا أحبك.

رددت وقد تمكن مني خنجر مسموم: وأنا أيضا.

وكعادتي في مثل تلك المواقف، لجأت لفراشي لأذبح ذلـك الشعور بالقهر، هربت من عالمي كله، لجأت إلى عالم الأشباح علّه يكون أكثر رحمة من عالم البشر، أهملت كل شـيء مـن حولي ونذرت عيني للبكاء، أغلقت الهاتف، حطمت كل شيء يصلني بالعالم، ووضعت قلبي على وسادة الذكريات.

مرت أيام كثيرة حتى أتيتني وكان قلبي قد تشبع بحواديـت الهجران، جئت تتلمس الطريق إلى جسدي في حـرص بـالغ فضعت وسط جليد لم تعهده، سئمت لعبة الموت ولم أسـتطع بعث مشاعري وتركتك تتفحصني كأنها المرة الأولى التي تراني بها، ناديتني باسمي فهزمت على لساني كل الكلمات، طـالبتني بنيران تضيء ليل البرد والوحشة، فمنحتك جثة خمـدت بهـا المشاعر وأشعلتها حيوانية لم يسبق لـك أن تعاملـت معهـا، اكتفيت بسيجارة يشتعل رأسها فتنقل الـنيران إلى صـدري طواعية، وأخذت أراقبك وعيناك تشعان ذلك الشعاع الخاطف

الذي يستكشف ما بداخلي، فأغمضت عيني لأعطيك الفرصة لتأملهما.

ركضت الحياة من حولي وأنا أتمركز حول قلب لم يمنحني سوى عميق النكبات، فبرغم معاملتك المهينة لي، إلا أنه كان ينبض بملامحك ليل نهار، ينتظر كلمة تنعش بداخله خلايا الاشتياق، ألتقي بك مصادفة فيمنعني عن التعبير عن افتقادك عظيم الجرح وعميق الكبرياء، تتعلل بالانشغال..بالإجهاد..بضيق الوقت، تضن عليّ بساعة وقد نذرت كل سنوات عمري قربانًا على مذبح قلبك.

رأيتك تحمل صغيرك للمرة الأولى وقد تلونت عيناك بلون الحنان، وغبطت ذلك الصغير الذي منحك شعورا جديدا بالأبوة ومنحني شعورا مضاعفا باليتم، راقبتك وقد احتضنت "هانيا" وطبعت على كامل وجهها جمر قبلاتك، بينما احتضنت أنا الطفل وحوّلت النار التي تعتمل بداخلي إلى مدفأة تشع من قلبي الدفء لضلوعه الصغيرة، أحببته فقط لأنه يحمل رائحة فتات الحب الذي منحتها لهانيا فقد كان يفتنني بداخلك طاقة الحب التي تنفثها في قلب كل مَن تقترب منك.

ضغطت على أعصابي الرغبة في الأمومة وسيطرت على حواسي، وخجلت من تلك الرغبة الكفيلة بالقضاء على

حياتك مع "هانيا"، والكافية بالقضاء على كل جسور الثقة التي شيدتها بيننا في الشهور الماضية.

مرت شهور وأنا أعاني تنكرك لبنود العقد الذي وقعته بحبر قلمك، ووقعته أنا بحبر مشاعري التي اختزنتها دوما لك، ومرت عليّ لحظة شعرت أنني يجب أن أمحي ذلك العقد الجائر، فقد منحتك نفسي وقلبي ومشاعري كاملة مقابل شطر منك، ولم تعد نفسي الأبيّة تتحمل ذلك الجور.

كدت أشجع خطواتي للذهاب إليك لولا أن ارتفعت حرارة العصيان بداخلي، وتمرد عليّ جسدي، ولجأت إلى فراشي علّي أبترد.

اعتل جسدي ولم أعد أفكر بالتخلص منك، كنت بحاجة إليك، وكبحت رغبة في هجران فراشي واللجوء إليك، ولكنني ولوطأة الوجع، طلبت مساندتك، فلم تستجب، أرسلت إليّ "هانيا" لتمرضني وكنت تعلم أنك دوائي.

أخضعني المرض لإرادته، ودفعني إلى ملازمة فراشي، ولم تستفسر حتى إن كنت عشت أم سئمت عالمك..عالم الأحياء.

قررت ألا أسيء الاختيار هذه المرة، ولجأت إلى خالد، كانت مكالمة هامسة من هانيا كفيلة أن يحمل فوق كتفيه

أمطار مانشستر، وأن يأتيني خلال دقائق، وما إن رأيته حتى صرخت: خالد...أحتضر.

كاد يحتضني وقال في تأثر بالغ: تدرين..أكره تلك الكلمة فلا تنطقيها ثانية!!

صحت في خوف كطفلة: قف بيني وبين الموت إن كنت فعلا تحبني.

تخاذلت بعينيه كل الإجابات فتطلع إليّ بقلق قائلًا: ها هي حياتي..مدي يدك لتمتلكيها.

قلت والحمى تنهشني: أحمـــ.... خالد....لا تدع الموت يأخذني منك.

قال همس: اهدئي يا صغيرتي..دعينا فقط نتعرف على سبب ذلك الجحيم الذي يعصف بجسدك.

كنت أحتاجك، مرت أيام كثيرة و لم تهتم بالسؤال عني رغم وجود هانيا معي، والتي لا تدخر جهدا في إخبارك بما أمرّ به، عندما تهاجمني الآلام كنت أشتاق أن أدفن رأسي بين ضلوعك، كنت أشتهي أن أصرخ باسمك الذي كنت أتحاشى النطق به حتى لا تتساءل هانيا عن سبب مناداتي لك وقد غادرني الوعي وبت أقطن أعماق مدن الحمى.

بدأت في التعافي، وما إن استرددت يسر أنفاسي حتى قررت إنهاء تلك الذلة التي صبغت كرامتي بصبغة العـــار...تنـــاثرت خطواتي على درب الحب كلما تقدمت خطـــوة عـــادت بي ذاكرتي آلاف الخطوات، ولكن قهر جحودك وتنكرك لعلاقتنا جعلني أسرع الخطى للتخلص من ذلك القيد الذي يكبل قلبي، أتيتك بقلب أحناه طول الظلم فلم تمد يـــدك لتربـــت عليـــه، كبحت جماح ذراعي حتى لا تلتفا حول عنقك طلبًا للأمـــان، ووضعت على عيني عصابة سود أفعالك، لاحت على وجهك ابتسامة تحمل من الخجل أكثر مما تحمل من الترحيب عنـــدما جلست أمامك أنوء بجبال من الصمت، لم تنطق كلمة واحدة وجلست أمامي تنظر إليّ وأنا أستحضر جحيم الكلمات، علّه يسعفني، ولكنه منحني كلمات تفتقد الحروف، ففضلت لغـــة الصمت التي استكثرتها عليّ فقلت: حمدا لله على الســـلامة... مم كنتِ تعانين؟

قلت: لم تظهر نتيجة التحاليل والأشعة بعد.

- متى ستظهر؟

- غدا....إن كان هناك غد.

فاجأتني تلك الابتسامة التي اتسعت، فطعم اليأس بـــصوتي يدمي من لديه بقية قلب، شعرت بالحنق ووددت لو صـــرخت

بك، ولكن لم يعد لدي قدرة على الصراخ، قلت في هدوء: لم آت لأشاهد سحر بسماتك، أتيت لأخرج ما بقلبي.

قال ساخرًا: وما بقلبك يا نجوى؟

- عدد من الجمرات، أريدك أن تتحمل الاكتواء بهن كما احترقت أنا، أحمد...يكفي.. لم أعد أطيق كوني زوجتك..أريد أن تحررني منك والآن.

قال: هذا يتوقف على طريقة التحرر.

- ليس هناك سوى طريقة واحدة...الطلاق.

أخذته المفاجأة واقترب مني قائلًا: ماذا حدث؟

- لست في مزاج يسمح بالحكي..فقط إنه أي علاقة يمكن أن تربط بيننا، سئمت منك.

- المرة الأولى التي تتجرأ بها امرأة وتنطق مثل تلك الكلمات.

- أنصحك بالتعود على سماعها، فلا توجد أنثى في هذا العالم تتحمل صلفك وظلمك.

قلت وقد صبغت ملامحك بلون الغضب: كلماتك كلها تحمل اسم "خالد"..

قاطعتك قائلة: سئمت تلك الطريقة البائسة.. لم تجد حجة تبرر بها فشلك معي سوى بمهاجمتي، علاقتي بخالد لا تتعدى كوننا أشقاء، أما علاقتي بك فهي دعارة روحية ممجوجة..إنني أحتقر نفسي لأنني ضعفت أمامك تلك الليلة..مازلت أدفع ثمن ذلك الضعف للآن..أنت لا شيء...لاشيء.....أكرهك.

قال بنفس الطريقة القاسية: أدري..تكرهينني بقدر ما تحبينه....أنتِ خائنة.

لم أجد سوى كلمة واحدة –وقتها- أصفعك بها: طلقني أيها المُخلص.

– وبعد الطلاق؟ هل ستذهبين إليه راكعة؟

– لم أركع من قبل أمام رجل ولن أفعل.

– طمأنتني...

– طلقني.....

قلتها لي بدون أن تهتز خلية واحدة من خلاياك: طالق...طالق....طالق.

لا أتذكر ما حدث بعدها، فقط خطوت خارجة لأخلع عني ذكرى الشهور الماضية، قدت سيارتي عكس اتجاه السير وقد استحال ضوء عيني ظلاما، وانعكس العالم أمامي، فلم أعد

أدري إلى أين أذهب، ولا لمن ألجأ، فركنت سيارتي إلى جانب الطريق وجلست على الرصيف أبكي كطفلة صغيرة وقد شاركتني السماء البكاء فاختلطت دموعنا إلا أن دموعها لها طعم المطر.

دق هاتفي، كان..خالد..فلا يسأل عني -وقت الشدائد- سواه، طالبته بأن يأتي ليأخذني فلا أقوى على قيادة السيارة، وخلال دقائق كان قد جاء وقد كسا القلق ملامحه، وحملني إلى بيتي وقد عاودتني الحمى مرة ثانية، وهاجمت خلايا إدراكي بشراسة.

وضعني في فراشي وأنا أرتعد، أعطاني دواءً يسكن أوجاعي، ولكن عجزت عن حجب الألم عني كل الأدوية، ضمني سلطان النوم بين جناحيه فلم أشعر بنفسي إلا في اليوم التالي عندما أيقظني خالد لتناول العشاء، لم أكن أدري أن رغبتي بك هي ما تقدح شهيتي، ففقدت بفقدانك طعم حياتي.

سألني خالد عما حدث فأجبته: منحني أحمد جناحين لأحلّق بهما خارج مملكته.

لم يبد عليه التأثر وقال: قد يكون ذلك أفضل ما فعل بحياته.

قلت ومازال سرطان الحب يعيث بقلبي وجدًا: لِم تكرهه؟ ماذا فعل لك سوى أنه مد لقلبي جسر الحب بوقت لم تفعل أنت سوى تحطيمه؟

قال في هدوء عاصف: أنا لم ولن أكره بحياتي قدر كراهيتي لذلك الصنم الذي أرغمت قلبك على عبادته، وأرغمت على الصمت -طوال تلك المدة- احترامًا لصلة مقدسة تربطك به..أحمد أيتها الملاك هو من أخبر زوجتي "نورة" بسر علاقتنا، فحوّل حياتي معها إلى عين الجحيم، وهو من طالبني -ليلة قبلتك بحديقة مترله- بالابتعاد عن حِمَى شقيقه الراحل، وعندما أخبرته أنني أريد الزواج بك هددني باقتلاع قلبي.

قلت في ذهول: ورضخت لتهديداته خوفًا على قلبك؟

- لم أرضخ.

- لم ابتعدت إذن؟

- كنت أرغب في تسوية الخلاف مع نورة، وبنفس الوقت أردت صدمك لتعدلي عن رأيك وتتزوجيني، لم أكن أدري أن طاقة العناد بداخلك دفعتك إلى قتل نفسك بالزواج منه.

- لم نخطط للزواج يا خالد، كان قرار الزواج وليد لحظة ضعف.

- أيتها الطيبة، أحمد لا يعرف الضعف، كان زواجه منك مدبرًا لينتقم من حبك لي، لأنه اعتقد أنها خيانة لشقيقه الراحل، وقد أحسن الانتقام.

- لا أدري لم تحاول تحطيم تمثاله أمامي؟ أما زلت تغار منه؟

- أنتِ من شيدتِ له التماثيل، وتمثال الفولاذ لن تؤثر به عواصف الكلمات عكس تماثيل الورق.

قلت وقد أعماني الغضب: خالد....تقبل تلك الحقيقة...هذا الكون رحالٌ غيرك...وأحمد برغم ما فعل ما زال بعينيّ سيدهم.

قال: تذكرين لقاءنا الأول بعد زواجك؟

- نعم..أفعل.

- بعده بيومين هاتفني أحمد وطلب مني الابتعاد عن دربك حتى يستطيع اقتلاع شرايينك.

لم أتمالك نفسي وصرخت به: أيها الكاذب..تدعي الإخلاص لصداقتنا وتأتي الآن لتعكر صفو ذكرياتي؟

- سأسامح نعتك لي بالكاذب، تعرفين طبعا صوت حبيبك ورقم هاتفه؟ ها هو الرقم ما زال على قائمة المتصلين بي، وها هو صوته الغاضب مسجلًا على ذاكرة الهاتف.

أنصت إلى المكالمة التي كانت بينكما، ووقتها فقط أدركت مدى زيف أحاسيسي عندما تمركزت حولك، ونصبتك أميرًا على أرقى عروشها، أدركت للمرة الأولى كم صبغت الهوى بصبغة الغدر ومثلت دورك على مسرح مشاعري باقتدار جعلني حتى لا أصدق المكالمة التي نفذها صوتك الذي طالما أشبعني بورديّ الجمل وعبير الكلمات.

كنت أستمع إليك تهدد خالد وتتوعدني بسوء الحساب، وقد تواترت أمامي ذكريات تجمعنا في أدفأ مخادع الحب وجعلتني أتساءل: هل صدقًا كان..حبًا؟!

يا لك من رجل..... لا..لن أنعتك بالرجل فقد اتسع عليك اللفظ، و لم تعد تناسبه خسيس خصالك،لا أجد ما أناديك به فحتى اسمك..."أحمد" أعظم من أن أنسبه إلى غادر..ألا تبًا لك!

وسألت خالد: لِمَ لَمْ تخبرني من قبل؟

قال في تأثر: آثرت أن أكون بجانبك حتى أخفف عنك تلك الكلمات التي أثارت جنونك الآن، أما بوقت حدوثها، فقد كان تأثيرها سيتلاشى إن تعلل بأن الغيرة أفقدته صوابه، أما الآن فلا مجال للتكذيب.

تكورت في فراشي كجنين يرفض الميلاد، وطلبت منه تركي أتعافى منك كما أحاول الشفاء من الحمى، وقضيت الليل كله أبكي، فتبتلع الوسادة دموعي، وأصرخ فتمتص الشراشف جحيم صرخاتي، حاولت إقناع قلبي بهجرانك فتمرد وازداد تمسكًا بك، وانشطرت روحي لقسمين، قسم يمقتك مثل حياة، وقسم يحبك قدر الموت الذي كنت أشعر في غيابك أنه اقترب مني، حتى كاد يلتقط أنفاسي بين شفتيه.ذهبت مع خالد إلى المشفى لأطّلع على نتيجة التحاليل الطبية، و لم تخدعني كثيرًا ابتسامات الطبيب التي حاول بها إقناعي أن مرضًا "كاللوكيميا" سهل العلاج، ولدت على وجه خالد ملامح الصدمة وتحولت سمرة وجهه إلى نيران وحاول النطق ولكن خذلته كل القواميس، أما أنا فبادلت الطبيب ابتسامة وقلت في مرح: أيها الطبيب.. لم يعد هناك وقتٌ كافٍ للحزن.. لذا...لن أضيع بقية أيامي في ارتداء ثوب الحزن حدادًا على حياة أمقتها..أنا طبيبة..وأعلم أنه مرض قاتل، لقد توفى والدي رحمه الله بنفس المرض، ولكن والدي لم يعش حياة كحياتي، لقد فعلت كل ما أريده بتلك الحياة..أحببت وتمردت وتزوجت وترملت وتزوجت ثانية وهجرني من أحب.. لذا..لم تعد هناك تجارب

أخرى أندم على حرماني من المرور بها...مرحى للموت أيهـــا الطبيب..أهلا به.

صمت الطبيب طويلًا ثم قال: "أنتِ أشجع امرأة صادفتها.. ولكن لا تركني لاختيار الموت فهناك حياة تنتظرك....فعلى أي حال...لابد أن هناك أملا.

نطق خالد للمرة الأولى قائلًا: متى نبدأ العلاج؟

كدت أعترض لولا أنه أشار إليّ بالصمت في حدة فأجاب الطبيب: من الغد.

في طريق العودة، انتابني صقيع غريب فجعلت أنظر إلى وجه خالد وهو يقود السيارة حتى أتدفأ، فقد عودتني ألا أتـــدفأ إلا بأنفاس رجل..كان صامتًا تلمع بعـــض الـــدموع في عينيـــه الواسعتين فتشعرني بحرارة أفتقدها، سألته: خالد.. هلا أعطيتني جزءا من حياتك؟

قال وقد اختنق صـــوته: لا يـــا نجـــوى..لا تـــستحقين حياتي...فحياتي أسخف من أن تساوي لمسة من يدك.

- خالد..لِمَ يخشى الناس الموت؟

أوقف السيارة فجأة، فكدت أصطدم بالزجـــاج الأمـــامي وقال في ثورة: أخبرتك من قبل ألا تنطقي تلك الكلمة..لـــن أدعك تتركيني...لن يحتضنك الموت طالما يحتويك صدري.

تحولت سحائب الدموع بعينيه إلى أمطار أغرقت عــشب وجهه، فارتدي نظارته الشمسية حتى يخفي عني أجمل ملامحه، نزعت عنه النظارة ووجهت صواعق نظراتي إليه قائلة: خالد.. لا تدعني وحدي فأنا لا أشعر باليتم إلا في بُعدك.

مد يده لتحتضن كفي، ونظر إلى عيني مباشرة، فوعــدتني نظراته ألا يتخلى عني.

بدأت بعلاج أثق أنه لن يشفيني، وانهمك خالد في تمريضي وقذفني تفانيه معي في بحار من الشعور بالذنب، فقــد أهمــل دراسته وبيته وارتدت ابتسامته ثوب الحزن الذي كان يحــاول إخفاءه، فاستشفه من بين لهب الأنفاس.

أنفاس الموت أضحت تقترب مني، ولكنني لم أكن أخشاه، ظللت طوال حياتي أخشى فكرة أن أوضــع بقــبر مظلــم، ويستحيل جسدي الجميل إلى رماد لحيــاة لطالمــا توقــدت وأشعلت الدفء بقلوب من حولي، وروحي الــتي لا أمتلــك سواها كيف تفارقني وتذهب إلى عالم تــشعر فيــه بالغربــة والوحدة، وتلك الأنفاس التي تضج بجحيم الحب كيف يتحمل الهواء انقطاعها وهي ما تمده بالحب؟!

تذكرت يوم تُوفي أبي وغادرنا وتركنا صغارًا لا ندرك معنى الموت، تذكرت كم كانت أمي تقضي الليالي تنعــى ذكــرى

تركها وذهب، ولكم كان أغلى لديها من كل ذكرى، تذكرت طارق بذلك العنفوان والدفء، كيف تحول لركام يغلق عليه باب قبر خشية التأذي منه.

لم أعد أخشى الموت، فقد منحني الله رغبة عارمة في التخلّي عن تلك الحياة والبدء بحياة أجمل، كنت أصدق أن حياة الموت أفضل من موتي بقربك.

ذات ليلة رعدية الملامح مطرية السمات، استيقظت من نومي على ضربات خفيفة على كتفي، ففتحت عيني لأجد والدتي تغدق عليّ أجمل ابتسامة، فانتفضت من مكاني رغم الأوجاع وطوقتها بذراعي وطفقت أبكي وأناديها صائحة..أمي..أمي..أمي....

استيقظت على صوت خالد يطالبني بالتزام الهدوء وقد أمسك بكوب من الماء وطلب مني تجرّعه، وما إن أفقت تماما، حتى تنازلت الدموع عن خزانة عيني وجلست أبكي وقد أمست كل أنفاسي متوقفة على رؤيتي لأمي واحتضانها لي.

تظاهرت بالنوم حتى يذهب خالد إلى الجامعة، ولكنني ظللت أفكر بأمي وأشقائي..وجدت بقلبي حنينا جارفا لرائحة الحقول في الصباح الباكر وزقزقة العصافير..وجدت رائحة ثيابي معبقة بعطر أمي التي لم تستخدمه يوما، وملامح العالم من حولي تطغى عليها بشرة أمي الخمرية، وخلال ساعات قليلة

كنت قد عزمت على هجر مانشستر التي لا تحتوي على مـــن يحمل صفة الرجولة كما يحملها خالد.

عزمت البعد عن هواء يحمل أنفاسك وشوارع تتحمل ثقل خطواتك، قررت أن أرحم خالد من ضغط عصبي كاد يـــودي به، انتظرته في المساء فأتاني حاملًا باقة من الورود التي افتقـــدتها طوال حياتي معك، أهداني ابتسامة عندما وجدني اقرأ إحـــدى المجلات، وقدم لي باقة الورد بعد أن منحها قبلة رقيقة وسألني: كيف حالك الآن أيتها الحورية؟

- بخير ولله الحمد.. شكرا لورودك منحتني سعادة أفتقدها.

قال بصوت هامس :

كُـــلَ صـــباحٍ ، ، ، ألـــمـــلـــمُـــكِ

مـــن عـــلـــى شُـــرّفَـــةِ الـــعُـــمُـــرْ

كَـــقَـــطَـــراتِ نـــدَى... ألـــعـــشُ بـــهـــا
روحـــي

واقـــطُـــفُـــكِ حَـــبَـــات تـــوتٍ أُحَـــلّـــي بـــهـــا
مَـــرار أيـــامـــي

كُـــلَ صَـــبَـــاحٍ أذمْـــدِمُـــكِ

بيني وبينَ مِرآتي

وأرُشُكِ عِطرًا تهْنئُ بِهِ مساءاتي

لا زِلتُ مُؤمِناً بكِ

ولمْ تَزَلْ عَيناي مُعتنِقَةً
ديانةَ عينيكِ

ولازالتْ روحي

تائهةٌ بشغفٍ

في بساتينِ شفتيكِ

من قالَ إني تبدلتُ عنكِ؟!
من قال إني

يوماً شُفيتُ منكَ؟!
يا أنت يا هذا السرطانُ
المُتَفشي في كُلِ اوردتي

لـــم أزلْ

حـــتـــى اللـــحـــظـــة

مـــجـــنـــونُـــكِ الأوحـــدْ

ولـــمْ تَـــزَلْ أنـــفـــاسُـــكِ

مـــــــــاءُ روحـــــي

يـــا امرأة تـــمـــشـــي

وتـــمـــشـــي مـــن ورائهـــا .. قـــوافـــلٌ مِـــنَ النـــســـاءِ فـــي قـــلـــبـــي

مـــن قـــال إنـــي- ولـــو لـــمـــرّةٍ -

تـــوقـــفـــتُ عـــنـــكِ

أنـــا

لـــم أتـــوقـــفْ يـــومـــاً عـــنـــكِ

أنـــتِ نـــبـــضـــي

ولـــم أزل

حـــتـــى النبضة

وحـــتـــى الـــرعـــشـــة

وحـــتـــى آخـــر زفـــرة

مُـمْـتَـنـاً لـكِ

فـــوحـــدكِ أنـــتِ

مـــن الـقَـنَـتْ صـيـاغـتـي

وحـــيـــاكـــتـــي

و

و

و

و

و

إعـــادةَ خـــلْـــقـــي

كـــمـــا تُـــحِـــبُ هـــيَ

وكـــمـــا تـشـــتـــهـــي

وحـــدكِ أنـــتِ

ثم مال على يدي وطبع عليها قبلة وأكمـــل: أنـــت حـــبي الأسطوري ودفء حياتي.

قلت: ما أجملها من ليلة..ورد.. حب..قصيد..وأنت.

ابتسم قائلًا: أنتِ قصيدة حياتي..وردة عمري...ليلة حبي.

في اليوم التالي حزمت حقائب الـــذكريات وتوجهـــت إلى المطار قاصدة مصر، تركت له رسالة رجوته فيها أن يكف عن البحث عني، وأن يهتم بدراسته وأسرته، فيكفي ما فعل مـــن أجلي.

عدت أجرجر أذيال خيبات قديمة ونكبات حالية وقلب أبى أن يخرس ومشاعر تأسى على قدر خالد معي، تركتـــه وقـــد ذرفت الدموع لاغتياله، دخلت شقتي فتلقفتني جدرانها الباكية وكأنها أحضان أمي، وشعرت بغربة دفعتني إلى القـــبض علـــى

سماعة الهاتف لأحادث شهيرة شقيقتك، لأستعيد بصوتها ذكرى أيام فقدتها ،وأتيت الآن لأبكي على مرورها وكنت أكرهها، همست إليها أنني وأخبرتها أنني أحتضر وأرغب في رؤيتها، وقضيت بقية المكالمة أستمع لذبذبات صوتها الذي فجعته المفاجأة وكلمات المواساة التي تبعثرت على سنوات توترت بها محبتنا، طالبتني بإرسال نتائج التحاليل والأشعة فأخبرتها برغبتي الأكيدة في الاستسلام للنهاية، صاحت، بكت، ثم صرخت ولكن شوقي للنهايات انتصر على كل ما فعلت، وختمت محادثتي معها بكلمة: "لا تدعيني أنتظرك فكما تعلمين لم يعد بالعمر بقية".

انتابني شوق جارف لشوارع القاهرة، فقضيت يومي الأول بها أطوف دروب الذكريات علّ قلبي يترد، عشقت الدوران بأماكن افتقدت دفء أنفاسك، بللت صدري بمطر القاهرة الذي بعث بداخلي حرارة الذكريات، آه يا أحمد، برغم كل شيء، مازلت أشعر بذلك الخدر عندما تهفو للمس ملامحك الإغريقية خلايا يدي، ما زال ذلك الزخم يتدافع بداخلي ويمنحني وجعًا مماثلا للحظة نطقت تلك الكلمة المجحفة"طالق".

فتحت عينيّ فاصطدمت بوابل من اللون الأبيض يحيط بي من كل اتجاه، حاولت تحريك رأسي فاكتشفت بشيء يضغط

على أنفي وفمي، هممت برفع يدي لأستكشف ذلك الـــشيء، ففوجئت بيدي هي الأخرى موثقة إلى شيء مـــا، وترجمـــت خلايا عقلي في لحظة تلك الرائحة المميزة للمستـــشفيات، و لم أذكر متى توسّدت تلك الوسادة المريحة، ولا من رافقني، بعـــد دقائق دخل الغرفة رجل، حاولت تبيّن –من بعيـــد– ملامحـــه بـــصعوبة ومـــا إن اقتـــرب مـــني حـــتى صـــرخت:ـــــــ محمد....شقيقي....

ارتمى "محمد" بين ذراعي، ولحظتها شعرت بجسدي يستعيد حرارة العافية، أخبرني أن الطبيب هاتفه عندما وجد أن مكالمتي الأخيرة كانت له، أخبرته أنني أشتاق إلى أمـــي..إلى شـــقيقي الأكبر...إلى كل شقيقاتي، أخبرته أيضًا أنـــني أســـير للنهايـــة بخطوات متسارعة، وأنني أرغب في الموت بين ذراعي أمي.. لم ينطق، ولكن اكتفيت بالنظر إلى عينيه العميقتين لأغرق وجعي بداخلهما.

حاولت الاعتياد على جو المستشفى، واستحضرت ذكرى أشواق قديمة لارتداء ذلك المعطف الأبيض واستنـــشاق غبـــار سنوات أنفقتها في دراسة الطب، فقط لأعمـــل بمستـــشفى، ويناديني الناس باسمي مسبوقا بكلمة "دكتورة".

كنت أتحمل العلاج بصبر أحيانا، وصمت فـــائر أحيانًـــا أخرى، سئمت كل الأدوية، سئمت تلـــك الابتـــسامة الـــتي

يواجهني بها كل من يراني، وكنت مِن قبل مَن أزين بها وجهي لأخفف عن مرضاي، تخليت عن عنادي ورضخت لتعليمات طبيبي، ليس من أجل الحياة وإنما من أجل التخلص من ألم أصبح يرتديني ويحول صفو حياتي إلى محيط يموج بالوجع.

في صباح ذلك اليوم، استيقظت على لمسات شديدة الرقة تحتضن وجهي وصوت ناعم رقيق يناديني"ماما"، انتبهت لأجد "سما" ابنتك تطوق عنقي في رقة، وتزرع ورود القُبل على وجهي، خشيت أن أفرح وأكتشف أنه حلم، فتلتهمني بحار الحزن، ولكنه لم يكن وهمًا، وتطايرت السعادة من حولي عندما اكتشفت وجود هانيا ثم وجودك، فلم أتصور أن تشرفني بالزيارة بعد كل ما حدث!!

جئت إليّ أنيقًا ترتدي تلك الحلة السوداء التي تحولك إلى نجم سينمائي -فارٍ من شاشة عرض إحدى السينمات- فقط ليبهرني، وقد حجبت عني عينيك بتلك النظارة الطبية، والتي كنت أخبرك دائمًا أنها تزيدك جاذبية، جئت ساهمًا مموّه الملامح، تملأ تفاصيلك ثورةٌ من التساؤلات.

وسط كل كلمات المواساة ووابل الدموع، لم تنطق سوى بتلك الكلمة: "سلامتك"، وظننتك شديد الكرم لنطقها بعدما فشلت في كبح جماح دموعك الفوارة، فأعطيتني ظهرك لتنظر

إلى النافذة، ولكن زجاج النافذة علّمني كيف يكــون الكــرم عندما عكس صورة تلك الدموع المتماوجة ويــدك القاســية تحاول منعها في إلحاح، وبعد انتصار الدموع، تركتنا، بعــد أن أخبرت "هانيا" أنك ستنتظرها بالسيارة، فأخبرتني هانيا أنك - ومنذ أخبرتك شهيرة بمرضي_ تمر بحالة من الكآبــة والحــزن، وكدت ابتسم لقدرتك على رسم دور شقيق الزوج المخلــص لشقيقه وزوجته، والذي يتمزق لانتهاء أسرة شــقيقه تلــك النهاية، لولا أن سألتني "سما ": ماما هو إنتي هتموتي زي هُيل؟

زيارتك سببت لي انتكاسةً عاطفية، فبعد أن أخضعت قلبي (لريجيم) شديد القسوة، ظهرت أنــت كقطعــة شــوكولاتة ذكرتني بكل ما أفتقد من متع الحياة، ذبحني الملــل فجلــب لي الطبيب مجلة تسليني وفي أثناء امتصاصي لرحيقها، دق البــاب دقات سريعة متتابعة، فدعيت الطارق للدخول، وما إن عانقت عيناي تلك الملامح الدافئة حتى صحت وجذبت الإبــرة مــن يدي وقطعت كل ما يمت للعلاج بصلة وصرخت كطفلة يتيمة -اكتشفت أن أباهــا بعــث مــن جديــد- قائلــة:ـــــــ ســيــــــــد؟!!!!!!!!!!!

اندفع إليّ وضمّني إلى صدره في قوة، وأذللت دموعي أغسل بها فعلتي، وقد ظننت أن "كل طيوب جزيرة العرب لا يمكن أن

تمحي تلك اللطخة"، تذكرته وقد حملني طفلة على كتفيه، وسار بي وسط ماء المطر، وقبلها لم يفعلها مع إحدى شقيقاتي.

حملني ووضعني بفراشي ونادى "محمد" للطبيب لكي يعيد الدواء إلى أشلائي التي بعثرتها المفاجأة، وجلس بجواري ممسكًا يدي بين كفيه، وقد تأكدت تمامًا أن كل ذلك النعيم ليس حلمًا دافئًا ولا وهما اختلقته أحاسيسي لتبعد عني الهيسارا وشيكا.

أعلن لي مسامحته، وطالبني بالذهاب معه إلى بيت والدتي، فشعرت برائحة جسدها تغمرني وبحنين قاتل يدفعني إليها دفعًا، ووعدني الطبيب بمغادرة المستشفى بمجرد اكتمال العلاج.

لا أدري ما الذي دفع هانيا لزيارتي ذلك الصباح الماطر، فقد أيقظتني وقد ملأت الدموع عينيها، أمسكت بيدي وذهبت في نوبة من البكاء، جعلتني أستشعر أن هناك خطرًا -أكبر من الموت- محدقًا بي، ناولتها كوب ماء وطالبتها بالهدوء فقالت بصوت متهدج: نجوى...سامحيني...

قلت وقد غمرني الاندهاش: حبيبتي...أسامحك...ولكنك لم تقترفي بحقي أي إثم، بل أنا من أطلب منكِ ذلك.

قالت وقد لف العينين الرماديتين غموض غريب: سامحيني حتى أسامحك.

لم تسألني عن سبب طلبي وأكملت: لقد تسببت في وجعك، ولكني ظننت وقتها أني أحمي حبي ولكن الآن أدركت أني لم أمتلك حبًا لأدافع عنه بتلك الضراوة!!

طال صمتها وهممت بالحديث، إلا أنها أشارت إليّ بالتزام الصمت، وأمسكت بكل مطارق الأرض لتدق بها على رأسي حين قالت: علمت بزواجك من أحمد.....كنت أتابع بصمت تلك النظرات المحمومة، وذلك الترق العاطفي الذي غطى كل تصرفاتكما.......

كدت أعتذر ولكنها أكملت: كنت أدرك أن حياتي معه انتهت مسبقًا، ولكنني لم أحتمل أن أراه يستمتع بك، ثارت أنانيتي كأنثى واستكثرت عليه أن ينعم بكِ، أردت أن يشعر بمثل شعوري، لذا أخبرته بحوارك مع خالد يوم التقيتما بعد زواجك، كنت أخبره كل شيء تخبريني به، لأراه يتقلب على جوانب السعير كما أفعل أنا، لأنني أعلم مدى أنانيته، فهو يفضّل دفن لعبته على أن يتركها محطمة ليجبر كسرها آخر، كنت أستمتع برؤيته يتعذب وهو يرى خالد يرافقك، وأمنحه من بريء الأمنيات ما يثير بداخله طوفان الشك الذي لا يستطيع سد الثقة -المنهار لديه- التصدي له.

أتيت إليكِ يومها لأكمل باقي القصة وأوقع على شهادة نهايتها، عندما أخبرتك أنني رأيته مع صديقتي، كنت أدري أن الشعور بالخيانة سيعزز كبرياء الأنثى لديك، ولن يسمح لكِ

باستجوابه، فقط ستستوطنين فراشك عدة أيام وسيقوم خالد بعدها بمعالجتك، كان لديكِ خالد أما أنا فلم يكن لدي سواه وكنتِ تدركين أنه حياتي....

نظرت إليها وقد كذب عقلي كل تلك الكلمات، و لم أجد سوى كلمة واحدة نطقها عقلي وترجمها لساني: أيتها الخائنة!!!!!!!

تحملت الكلمة التي غرستها بصدرها ببسالة: نصف خائنة...فقد تقاسمنا معًا مرارة الخيانة فاستأثرت أنتِ بنصف واستأثرت بالنصف الثاني.

لم أستطع منحها براءة لما فعلت، فقد ضيعت ما بيننا، وسمحت لنيران الخديعة بأن تلتهم حبا إن استمر لعلم العشاق بالعالم كله، كيف تكون المشاعر، وبرغم كل ما فعلت لم أستطع اقتلاع جذور ذلك الموقف من حياتي.

رافقت شقيقيّ إلى قريتنا، وارتميت بحضن أمي بعد طول اشتياق، وعدت بالعمر لطفولتي ثانية، حاولت التأقلم على الحياة في الريف وعلى ذلك البيت الجديد الذي شيّده شقيقي، بعد أن هبطت عليه ثروة عندما تحولت أرضنا الزراعية إلى أرضٍ صالحة للبناء، كنت أستيقظ صباحًا على أصوات زقزقة العصافير وصوت والدتي وهي تزجر أبناء شقيقي السيد،

وتطالبهم بالتزام الصمت حتى لا يوقظوني، كنت أستمتع بكلمة "عمتي" عندما تنطقها إحداهن وأطرب عندما تلجأ إليّ أحداهن خوفاً من بطش والدها إذا عاندت، فقد كان العناد الصفة الوحيدة التي ورثتها لبنات شقيقي.

كنت أقضي طوال اليوم أتطلع إلى السماء، أراها كما لم أرها من قبل، أصبحت عالمي الذي أطمح إلى اعتلاء عرشه عندما أتخلص من أدواتي الحسية، وأتحول إلى روح، كنت أشعر بسعادة عندما أتصوّر أنني يوما ما سأحلّق بأجنحة من نور كحمامة بيضاء تغازلها أشعة الشمس فتزيدها ألقا.

بينما كنت جالسة أمام بيتنا أصفع وجه الماء بقدمي فتتناثر حبيبات اللؤلؤ المائية محولة المكان حولي إلى جنة، جاءتني عائشة وهي تحمل هاتفي، وأخبرتني أن هناك من يود الحديث معي، وما إن سمعت صوتك حتى انتابتني أعراض حمى حب قديمة، بردت أطرافي وارتجفت أعضائي وتقطعت أوصالي، وساد صمت قطعته بقولك: هل نسيتِ صوتي؟ أم تناسيتِ؟

قلت: نسيتك...لأن فعل النسيان أقوى من ضعف التناسي.

- ولكنني لا أستطيع نسيانك... ما زلت أتمنى وصالك.

- أحمد... لم يعد هناك ما يربطنا...انتهت كل الروابط...أرى أن تحاول العيش بسلام مع زوجتك

وأطفالك... أريد أن أعيش ما تبقـي لي مـن أيـام بـدون الإحساس بذنب اختطافي لك.

ظننت أنني أسمع صوت دموعك ولكنني لم أهتـز، لم أعـد أشعر بذلك الإحساس الذي يدفعني دفعًا إليك، ظننت لحظتها أن صرخاتي التي أطلقتها حزنا وقت أن افترقنا ما هي إلا إعلان عن موت الحب الذي جمعنا يومًا، همـست لي: سـامحيني..لا أستطيع تحمل فكرة قتلي لكِ.

قلت: لا أستطيع مسامحتك يا أحمد، مازلت أحمـل قلبًـا ينزف، لن أريح ضميرا لم يوقظه سوى موتي، لن أتسامح بوأد مشاعري وذبح أحاسيسي، سيطاردك شبح حبي إلى أن تلحق بي، ستسمع بكائي في همس أغنياتك المفضلة، لن تستمتع بالمطر بعد اليوم، سيخبرك الرعد بمدى الوجع الذي تسببت لي بـه، وستضرب الريح أغصان حديقتك لتسمعك حفيف عقلي الذي طالما نصحني، وعندما يصافح المطر وجهك الباسم، سـتتذكر دموعي لفراق كنت أنت من أهداه إليّ..الآن اذهب إلى بيتك وتذكر فضل الله عليك أن منَّ عليك بأيام تنفقها على حـب أطفالك.

أغلقت الخط وجلست أبكي، تطلعت إلى السماء ثانية حتى أتجلد، وخطر ببالي أن أفعل شيئا يساعدني على تخطـي تلـك

المحنة، فناديت أشقائي وأخبرتهم بـــرغبتي في اســـتغلال قطعـــة الأرض التي ورثتها عن والدي في تـــشييد مـــسجد ضـــخم ومستشفى صغير ملحق به، ووجدت الفكرة قبولًـــا لـــديهم، وفوّضت شقيقي محمد في تنفيذ ما أردت، وشعرت أن الـــروح تدب بداخلي من جديد، وأن تلك العداوة التي تحملها خلايـــا دمي لشقيقاتها بدأت في الانحسار، عـــشت لـــذة جديـــدة لم أختبرها من قبل، وهي لذة الاقتراب من الله، شعرت أنه يمـــلأ عليّ قلبي وكياني، ويدفعني بكل حب للقائه، فتنهمر دموعي في الصلاة حبًا فيمن أقف بين يديه ومن قبل لم أبك للذة حب.في صباح أحد الأيام، جلست بمكاني المفضل أنتظر طيور الـــسماء لتلوح لي، فجاءتني عائشة لتخبرني أن هناك من أتى لزيـــارتي، ظننت للحظات أنه أنت، ومشيت بخطى وئيدة لونها المـــرض بلون الضعف ولكنه لم يستطع كسر كبريائها، لم أتصور أنـــني وبعد كل هذا سألتقي بخالد، ظننت برؤيته أنني صعدت للجنة، وابتسم قلبي للمرة الأولى منذ فارقته، وحرمتني الفرحة خجلي، فاندفعت إليه كطوفان حب لأطوق عنقـــه وســـط ذهـــول شقيقاتي، تناثرت دموعه حتى ظننت أن العالم من حـــولي قـــد استحال لدموع حب، ساد صمتنا الثائر عدة دقائق حتى بـــدأ

هو الحديث قائلًا: أيتها المجرمة لِمَ تركتني أصارع وحدي أمواج الخوف على مصيرك؟ ألم تخشي عليّ الضياع بعد فقدانك؟؟

- تركتك لأن وجودي أصبح عبئًا عليك، أهملت كل شيء من أجلي، أردت التصرف بلا أنانية وتدري أنني لا أستطيع الحياة بدونك، ولكن أحيانا يتوجب علينا التضحية.

قال في انفعال: يمكنني أن أضحي بأي شيء أمتلكه هذا العالم من أجلك، تدرين أنني أتنفس عبق أنفاسك وابتعادك يحرمني حق التنفس.

ناديته شوقًا للاستمتاع بوقع حروفه قائلة: خالد.

فرد وقد أغمض عينيه في رقة: (لبيه...يا لبيه).

- كم أفتقد (لبيهك).

- تمسكي بالحياة من أجلي وسأملأ عالمك بتلك الكلمة.

- لا حياة تنتظرني يا خالد...تدري أنني أحتضر.

- هناك دوما أمل وقد أخبرتك من قبل ألا تتفوهي بتلك الكلمة، فالموت يخشى المحبين.

- الموت لا يفرّق بين الحب والكراهية فالكل أمامه سواء.

قال في قوة: سأثبت لك أن إرادة الله بانتصار الحب أقوى من كل موت، ستسافرين معي لأمريكا لزرع نخاع آخر، لقد

تحادثت مع شهيرة وأرسلت إليها نتائج تحاليل الأنسجة الخاصة بي والتي أثبتت أن أنسجتي تتطابق مع أنسجتك بنسبة قُـدّرت بمائة بالمائة؛ لذا سأمنحك نخاعًا آخر، فلا تبتئسي.

غطت على عيني سحائب المفاجأة ولكني سألت: هل تقصد شهيرة شقيقة طارق؟

أومأ برأسه إيجابًا فأكملت: كيف تعرفت إليها؟

قال: إنها هانيا من سعت لذلك التعارف وهي من أعطتني عنوانك.

نفضت عن رأسي جمر ذكريات ما زالت تحرقني وقلت: خالد..تدري أنني لا أستطيع إجراء تلك الجراحة، إن خطأ طبي صغير في أثناء سحب النخاع، كفيل بتعجيل النهاية، وإن لم يحدث خطأ فلن أستطيع مقاومة أي عارض مرضي نتيجة لضعف المناعة، وستتحول حياتي إلى جحيم، لقد رضيت بالنهاية وأتشوق إليها.

قال في حزم: سأقتلك إن حصلت على فرصة كهذه ولفظتها، أنا واثق تمام الثقة بقدرتنا معًا على النجاح وتخطي ذلك العائق الذي يحول بيننا، أرجوكِ يا نجوى، هذه فرصتي الأخيرة للحصول على السعادة، فلا تضيعيها من بين يدي.

تواترت أمام عيني أحداث حياتي، وللمرة الأولى ألحظ بها ذلك السحر العجيب، فحتى الأحداث المؤلمة بها، لها رائحة

الطيب، تذكرت طارق وتذكرت لحظات الحب التي أهديتـــها لي وتذكرت سحر خالد، ووجدتني أقارن بين حالة (النيرفانا) التي وصلت إليها، والرغبة في الحياة، وأدركت أن حالة الصفاء التي أمر بها أفضل من ألف حياة، وأعلنتها صراحة: لا أستطيع التخلي عن صلتي بالله مقابل حياة لا أثق بها.. لقد قربني اليأس والخوف من سوء الخاتمة إلى الله وأخشى أن أفقد هذا القـــرب عندما تمنحني الحياة الخداعة عدة سنوات أكثر.

همّ خالد بمناقشتي، ولكن والدتي أشـــارت إليـــه بـــالتزام الصمت وقالت: "يعني فكرك ربنا يرضـــيه إني أتقهـــر وأنـــا شيفاكي أدامي كده؟ يرضيكي تغضبي قلبي عليكي تـــاني؟ إن ماعملتيش العملية دي ورجعتي لي قلبي هيغضب عليكي ليـــوم الدين".

بعد جملة أمي العاصفة، جفّ معين الكلمـــات، فركعـــت أمامها وقبّلت يدها وطالبت خالد بأن يبدأ في اتخاذ الإجراءات اللازمة للسفر.

كان هناك شيء واحد أفكر به، بعيدا عن المرض وبعيدا عن خالد، كان هذا الشيء هو أنت، لذا قررت إنهاء رسالتي إليك، أمسكت الورقة البيضاء الأخيرة والتي استمدت لونها الأبـــيض من نقاء قلبي الذي اقتلع الحب منه كل ما يدنس ومنحه صفاءً طغى على تفكيري، كتبت لها:

" إليك...أحمد

بعد أن فقدت صفتك كحبيب، لم أستطع منحك لقبا آخر، فالأخوة والصداقة لا تعبران عن جحيم مشاعري الـــسابقة ولا زمهرير أحاسيسي الحالية

سأدعوك برفيق الحب

أحمد..يا رفيق الحب

يوما ما سيطرق بابك خالد، ستراه وقد طالت لحيته وذبلت ملامحه الطازجة، وفقدت عيناه ذلك البريق الأخاذ..

وقتها، اعلم أنني قد غادرت عالمك..

أحمد

كانت مكالمتك الأخيرة لي حافزًا لي لكـــي أخـــط تلـــك الرسالة، فقد قست عليك كلماتي، والآن أدركت أن القـــسوة لا تليق بمثلك، أردت فقط أن أخبرك أنني أسامحك، فلا تحمـــل وزر قهري، ومن أجلي...أخبر هانيا أنني أسامحها، فقط لأنهـــا أهدت إليّ خالد فهو لي الحياة.

سيسلمك خالد تلك الرسالة وكله شوق بأن يعلم محتواها، لذا أرجوك ألا تضن عليه بها..

أخبره إنني أحبه وأن رسالتي الأخيرة تحمل عبق حروفه.

طويت الرسالة، وسلمتها لخالد، وطالبته بإيصالها لـــك إذا انتهيت حياتي، كاد يعترض ولكنني لم أمنحه فرصة الاعتراض، سألته: خالد متى السفر؟

قال في رقة: غدًا مساء.

قلت: خالد..هل تثق بشفائي؟؟؟

اتسعت عيناه السوداوان وتمتم في خفوت: يا اللـــه، نعـــم تمام الثقة فلن أصحبك للموت أبدًا.

أكملـــــت: هـــــل هنـــــاك مـــــا أقدمـــــه لـــــك؟ قال: نعم..تزوجيني.

قلت في هدوء: إن قدرت لي الحياة فلن أجد مَن يـــستحقها سواك، وإن فقدتها يكفي فقط أنني التقيت بك.

قال: سأعود معك، أثق بقدرة الحب على الصمود.

قلت: وإن لم أعد معك؟

- ستعودين.. وسيمنحك دفء أنفاســـي القـــدرة علـــى التشبث بي ... ستمنحك دمائي التي ستجري بشرايينك ألـــف ألف حياة.

وفاء نصر شهاب الدين

الأحد

٢٠٠٩/٣/٨